في ظلال السيرة وحياة النبي ﷺ

إعداد / عادل بن عبدالعزيز المحلاوي

١

مقدِّمّة موجزة

حياة نبينا محمد ﷺ هي الترجمة الحقيقية للإسلام، والنهج القويم لمن أراد الله والدار الآخرة، فقد جعله الله أسوة للعالمين، وقدوة للسالكين.

وحياتُه كلّها عبراً ودروساً للمتأملين، وهي أقصر طريق لنيل رضا الرحمن، فحريٌّ بالمؤمن أن يتعرّف عليها ويدرسها، وجديرٌ بالأعمار أن تُمضى في التفقه فيها لينال العبدُ سعادة الدنيا والآخرة.

وفي سيرته وسيرة صحبه الكرام يجد المؤمن بغيته في ثبات الثابتين، وبذلهم الأنفس والأموال، واعتزازهم بهذا الدين العظيم، ويعرف المرء قدرهم وعظيم تضحياتهم لدين الله تعالى ونصرتهم لنبيهم.

٢

اصطفاء الله لنبيه ﷺ

اختار الله محمداً ﷺ ليكون خاتمَ النبين ، وتمام عِقد المرسلين و "اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ" وقد اجتمع فيه كل كمال بشري .

فقد كان أتمّ النّاس إيماناً ، وأخلصهم عبادة ، وأكملهم أخلاقاً ، وجُمعت فيه كل صفة محبوبة للنفوس ، فلا عجب أن تجتمع عليه القلوب ، ويفديه الأصحاب بأرواحهم ، ويهجروا الأهل والأوطان لأجل الإجتماع بـه ، والعيش بجـواره ، ليـؤدا عبـادة الاستجابة لربهم ، والنصرة لنبيهم ..

فيالسعادة تلك الأرواح التي اصطفاها الله لصحبة نبيه ، ويالعظيم ثوابهم فيما قاموا به من حسن الصحبة ، ونصرة الدين .

٣

نسبه ﷺ

الأنبياء يُبعثون في أشرفِ الأنساب كما هو مقرر في جميع كتب الملل ، وبيتُ النبي أشرفُ البيوت وأطهرها ، ونسبُه أعزّ الأنساب وأرفعه ، فهو من السلالة الإبراهيمية - البيت الذي أنزل الله عليه الخيرات ، وأحاطت به البركات - فكل الأنبياء من بعد إبراهيم من سلالته حتى ختمهم الله بمحمد ﷺ .

ونسبه القريب إنّما هو اصطفاء في اصطفاء ، قال ﷺ:

" إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ "

ولا يُعرف في نسبه سفاح كما أجمع على ذلك أهل السِير ، فصلوات ربي وسلامه عليه .

٤

ولادته وتسميته ﷺ

وُلِد ﷺ يتيماً فقد مات أبوه وهو حَمْل في بطن أمّه ، قال ابن كثير : (وهذا أشدّ أنواع اليتم) .

وكانت ولادته في شهر ربيع ، ومّما ذكره أهل السير في هذا الشأن : أنّ ولادته في زمن الربيع - وهو أعدل الفصول - مما يشير إلى أنّ شرعه أعدل الشرائع .

ومنها : أنّ فيه تنويهاً بجلالة قدره ، فالربيع تُزهر فيه الأرض ، وكذلك كان هو بأبي وأمّي ، فقد أزهرت الدنيا بمقدمه .

وسُئل جده عن سبب تسميته محمد ، فقال :

(ليحمده أهلُ الأرض والسماء) فصدقتَ نظرته ، وحقق الله له ما أراد ، فصار محموداً في الأرض وفي السماء .

٥

رعيه الغنـم ﷺ

نشأ ﷺ في بيت فقر ، وقلة ذات يد ، فاشتغل وهو صغير في رعي الغنم ليضرب مثلاً عالياً في السعي لاكتساب الرزق بالكدِّ والتعب ، ولئلا يعتمد على غيره في سدِّ حاجته ، وليُعين جده الذي لم يكن صاحب مال ، وكان أول وقت شرّفه الله به بالنبوة هو وقت رعية الغنم في أحد جبال مكة .

رعاها ليحصل له التمرّن من رعاية البشر ، واكتساب الحلم والشفقة ، وطول التعاهد لمن تحت يده ، وليُعلّم البشرية أن لا يُنكر المرء ماكان عليه من الفقر والعِوز ، فذكر حاله تواضعاً واعترافاً بفضل الله عليه .

٦

أخلاقه التي اشتهر بها ﷺ قبل بعثته

جُبل عليه الصلاة والسلام على الأخلاق الشريفة قبل بعثته ، فكانت حياته أمثل حياة ، وأحفلها بمعاني الإنسانية .

اشتُهر بالصدق الذي يُعدُّ من أشرف خصال المرء ، وكانت الأمانة شعاره ، والإخلاص دثاره .

وعُرف بصلة الرحم والإحسان إليهم ، عطوفاً على الفقراء ، يُقري الضيف ، ويُعينُ على نوائب الدهر ، فيُغيث الملهوف ، ويُكسب المعدوم ، فعرف فضله أهلُ مكة ، وأنزلوه المنزلة اللائقة به ، وكان عندهم مقدَّماً .

ولأجل ذا لم يجد الكفّار مايُعيبوه به عند بعثته إلا الافتراء والكذب ، وكان إعراضهم عناداً وأنفة وحسداً .

٧

سلامته ﷺ من أدران الجاهلية وضلالاتها

نشأ رسولُ الله ﷺ منزّهاً من قبائح الجاهلية، وضلالات ذلك الزمان الذي كان مليئاً بالعقائد الفاسدة، والأخلاق الرديئة، والأعمال المشينة، والعادات السيئة، والأقوال الساقطة، فأبغضها سليقة، وكرهها بطبعه، وهجرها بكليّته، وكان بينه وبينها بوناً شاسعاً.

وكان أبغض ما يكون عنده ذكرُ اللات والعزى، وأشنع ما يُفعل أمامه التمسح بهما، ويكره عادات قومه التي تخالف الفطر السليمة، فصفت حياته قبل البعثة، وسلمت سيرته، فغدا معافاً من هذه المخازي، سليماً من كل ما يشينُ حياته وإن كان في جاهلية ولم يُبعث بعد.

٨

زواجه ﷺ من خديجة

لم يكن رسول الله ﷺ رجلاً شهوانياً تُضله نفسه، وتُغويه شهوته فترديه المهالك، بل كان رجلاً عفيفاً رزيناً عاقلاً، فلذا كانت سيرته شامة ظاهرة في الطُهر والعفاف.

ولّما أراد الله بخديجة خيراً جعلها زوجته في الدنيا الآخرة، وكانت امرأةٌ عاقلة محلُّ مطمع الرجال العقلاء، ولكمال عقلها خطبته لنفسها حرصاً منها عليه، وطمعاً في أن تظفر برجل مثل محمد وهذا شأن العاقلات اللاتي ينظرن للزواج أنّه (مشروع حياة طيبة، وتكوين أسرة صالحة، وراحة وطمأنينة وسعادة)، لا تفاهات أقصى أهدافها :

اطفاء شهوة، وتلبية مطالب بطن وفرج وفسحة نفس، بل بيت يكون نواة لذرية مباركة، ومساهمة لإصلاح مجتمع، فيُحقق الله للزوجين ما يريدون.

٩

مع خديجة رضي الله عنها

أحبَّ رسولُ الله ﷺ خديجةَ رضي الله عنها لِما تمتّعت به من خصال استحقت أن يمضيَ معها أحسن سنين عمره، فقد تزوجها وعمره خمساً وعشرين عاماً - أعدل سنين المرء - فكانت نعم الصاحبة، تحوطه برعايتها، وتملأ حياته أنساً وسعادة، ولذا استغنى بها عن النساء فلم يتزوج عليها، وظهر كمال عقلها لّما أخبرها ببعثته - وهو أعظم حدث في عمر الدنيا - فسجلتَ موقفاً صار شامّة في غُرّ الزمان، إذ ثبّتّته في كلمات خلّدها التاريخ، ووقفت بجانبه وهي ترى النّاس قد مالوا عليه عن قوس واحدة ولكنّها ليقينها بصدقه لم تتزعزع، ففازت بأن تكون أول مخلوق تؤمن به، فجازاه الله ببيت في أعالي جنّته.

١٠

تحنّثه ﷺ في غار حراء وحبه للخلوة

كان رسول الله ﷺ كارهاً لِما عليه قومُه من الضلالة من عبادة الأصنام ونحوها.

ويتحير المرء وهو يتأمّل في هذه العقول المنغلقة، إذ كيف يعلّقُ العاقلُ قلبَه بحجر لا يضر ولا ينفع!؟

فكان معتزلاً لهم، مجانباً ماهم عليه من الانحراف.

ولّما قارب سنّ الأربعين حَبَّب الله إليه الخلاء، فكان يبقى في غار حراء شهراً يتزود له، ويبقى فيه متفكّراً في النفس والكون، ومتعبّداً ببقايا دين إبراهيم عليه السلام.

ولم يكن يومئذٍ متطلّعاً لنبوة ورسالة، ولكنّ الرحمة التي سبقت له من ربه، والاصطفاء والاختيار الرباني لهذه النفس الشريفة.

١١

إرهاصات ومقدِّمات النبوة

قال عليٌ رضي الله عنه : كنتُ مع النبي بمكة ، فخرجنا في بعض نواحيها ، فما استقبله جبلٌ ولا حجر ولا شجر إلا وهو يقول :
" السلام عليك يارسول الله " أخرجه الترمذي وحسّنه الألباني .

وروى مسلمٌ عن ابن عباس أنه :
(كان يسمع صوتاً ويرى ضوءاً)

قال القاضي عياض : كان هاتف الملائكة ونورها .

فخشي على نفسه الجنون ، فأخبر خديجةَ رضي الله عنها بذلك فكانت تطمئنه وتقوي من قلبه .

هذه الصور وغيرها كانت مبشِّرات له ، ومع ذا لم يصلنا أنّه أعلن بهذا على الملأ بل يُخبرُ بذلك فقط خاصّة أهله فلمّا أخبرتَ ابن عمها ورقة بن نوفل ، أخبرها : أنّها بشائر النبوة .

١٢

منزلة النّبوة والرسالة

لا منزلة في الدنيا تعدلُ منزلة النبوة ، ولا شرف كشرف الرسالة ، ومِنّة الله على نبيه بها لا تعادلها منّة ، وفضلٌ كما وصفه الله " عظيماً " . فمنزلةُ الرسالة والنبوة أعلى منازل البشرية ، والاصطفاء والاجتباء من هؤلاء الرسل - أيضاً - يزيدها شرفاً ، ونبينا أحد أولي العزم من الرسل الخمسة وهم :

(نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد) وهو :

أفضلهم وسيدهم .

فينبغي للمرء أن يعرف منزلة نبيه التي أنزله الله إياها حتى يؤدي الحق الذي يستحقه ، ويُنزله المنزلة اللائقة به .

والإيمان بهذا من واجبات الإيمان ، ومن أجلّ القُربات التي ترفع صاحبَها عند ربه ، ويذوق معها حلاوة الإيمان .

١٣

مِنّة الله على نبيه ﷺ بالرسالة

لّما كَمُلَ له أربعون سنة، أكرمه الله برسالته، وأشرقت على قلبه أنوار النّبوة، وجعله أمينه في الأرض، ورسولاً بينه وبين عبادَه.

وتلك لعمر الله الكرامة العظمى التي رحم الله بها البشرية، فبه سيُخرج الله النّاس من الظلمات إلى النور، وسيعرفُ العبادُ ربهم، وسيؤدون حقه، وسينالون السعادة العظمى التي سبقت لهم.

وكان ابتداء ذلك النور يوم الاثنين السابع عشر من رمضان، ففجأه الوحي وهو في غار حار فنبأه بنبوة الله له ونزلتَ عليه " اقرأ " فكانت لحظة بزوغ الفجر لهذه الأرض، فرجع لأهله خائفاً وجِلاً لكنّ زوجته العاقلة هدأته وطمأنته فذهب عنه مايجد، ثمّ فَتَر عنه أياماً ليستجمع قواه، وليكون مستعداً لاستقبال الوحي الذي سيتتابع حتى يلقى الله تعالى.

١٤

نزول الوحي مرة أخرى مؤذناً بالبلاغ

بعد نزول الوحي أوّل مرة شعر رسول الله بالخوف والرعب - وحُق له ذلك - فالوحي ليس بالشيء الهيّن ، بل هو كما وصف الله " قولاً ثقيلاً " .

فنزل بعد ذلك أول سورة المدثر التي يأمره الله فيها بأن يُشمّر عن ساعد الجِدّ في البلاغ والإنذار ، وليوقنّ أنّ المهمّة العظمى قد بدأت ، وأنّ البلاغ والإنذار قد أزف ، وأنّ تكبير الله لا بد وأن يُعلن ، وأنّ الدعوة تحتاج إلى صبر يعلّق المرء معه قلبَه بالله .

فقام بالأمر على أتمّ وجه ، فكان أبرك النّاس دعوة ، وأصبرهم نفْساً ، وأشدهم تحمّلاً ، وأوسعهم أثراً .. فصلوات ربي وسلامه عليه .

١٥

أعظم مهمة في تاريخ البشرية

بعدما رجع رسول الله ﷺ بأول سورة المدثر ، وأيقن بنبوته ، وأنّه رسول هذه الأمّة ، المُكلّف بالبلاغ ، بدأ بالدعوة إلى الله ، ونشر الإسلام في أعظم مهمة في تاريخ البشرية ، فبدأ بالأقربين منه الذين يوقن أنّهم يعلمون صدقه ، وعدم جراءته بالكذب على ربِّ العالمين ، فعرض الأمر على أقرب النّاس إليه (زوجته خديجة) فأسلمت مباشرة ، فكانت أول من أسلم من هذه الأمّة ، وأسلم عليٌ رضي الله عنه ، وزيد حارثة مولى رسول الله إذ كانوا أهل بيت رسول الله ، وعرض الأمر على الصدّيق الأعظم (صاحبِه أبي بكر) الذي استجاب مباشرة ولم يتكلأ أو يتردد فكانوا أصحاب السبق في هذه الأمّة .

١٦

فهم أبي بكر لمهمة المسلم

لّما أسلم أبو بكر فهم - وهو أعلم الأمّة - أنّ مهمة البلاغ واجبةٌ على كل فرد منها ، وأنَّ هذه الفترة - التي هي النواة لهذا الدين - لابد أن يكون له دورٌ في نشره وعرضه على العقلاء الذين تجرّدوا من سلطان العادات والتقاليد .

فعرضه على الأقربين منه الذين سارعوا للاستجابة ، وسبقوا لهذا الفضل العظيم ، فكانت أسماؤهم لامعة ، ومواقفهم جليلة (فأسلم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيدالله وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص على يديه) وفاز أبو بكر بحسنات أولئك النفر الذين صاروا من قادة هذا الدين العظيم ، وكان لهم قدم صدق في الإسلام ، ولتكون أعمال أولئك في ميزان حسناته ، وقد حفظ الصحابةُ فضله حتى الممات ، لنوقن أنّ أشرف الأعمال هو خدمة هذا الدين العظيم والدعوة إليه .

١٧

الإعلان بالدعوة

بعد مضي ثلاث سنوات من الدعوة السرية يأتي الأمر من الله لنبيه بالجهر بالدعوة ، بقوله تعالى : " فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ... " ليبدأ الرسولُ مع ذلك الرهط المبارك أعظم المهام في تاريخ الأمم بنشر هذا الدين ، وتحمّل التبعات ، ومخالفة الأهل والأقربين ، ولذا كانت الآلام والأذى الكبير الذي لقيه ذلك الجيل ، وكان التحمّل شعارهم ، والصبر دثارهم ، ونالوا رضى الرحمن سبحانه ، وسجل التاريخ مواقفهم وتضحياتهم بمِداد الذهب ، وبقي لهم لسان صدق في الآخرين بمآثر تناقلتها الأجيالُ جيلاً بعد جيل ، وعرفتَ الأمّةُ قدر أولئك النفر ، ذلك أنّهم كانوا في أهم فترات هذا الدين فأُذووا وصبروا حتى استوى على سوقه ، وتسلمته الأجيال بعدهم غضاً طرياً كاملاً ، فجزاهم الله عنّا خير الجزاء .

١٨

أدوار الصحابة في بداية الدعوة

المتأمّل في جهود الصحابة في بداية الدعوة يجدها كانت عظيمة ومتنوّعة ، ولها أثرها الكبير في نشر الإسلام ، وتقوية الأتباع ، وتشجيع الآخرين على أن يُسلموا ، ولعل من أعظم النّاس عملاً في هذه الفترة الحرجة هو :

(الصحابي الجليل أبو بكر الصديق) الذي جعل وقته وماله وفكره لهذا الدين العظيم ، فأعتق بلال بن رباح وعامر بن فهيرة وغيرهم من المستضعفين .

ومنهم : (الأرقم بن أبي الأرقم) ذلك الشاب اليافع الذي جعل بيته مأوى للمسلمين الجدد الذين يجتمعون مع نبيهم ، فيوعظهم ليثبتوا على الإسلام .

فما أجدر المسلم أن يفهم أنّ له دورٌ كبير في خدمة دينه حتى وإن كان حديث عهد باستقامة ، أو لا يملك إلا النزر اليسير من العلم .

١٩

صنوف الأذى التي لقيها ﷺ

يصوّر لنا قوله " أوذيتُ لم يؤذ أحد ، وأُخفتُ في الله ولم يُخفْ أحد " مدى الأذى وشدته الذي لحقه ، فإنّه لم ينلْ أحدٌ من الأذى مثل ماناله ﷺ .

وأجزم أنّ كتب السيرة لم تنقل لنا إلا النزر اليسير منها .

وإذا تأمّلت أنواع الأذى الذي لقيه لوجدته صنوفاً متنوعة ، فيُخنق حتى يكاد يموت ، ويُضرب حتى يسيل الدمُ من وجهه الشريف ، ويُحبس في شعب أبي طالب ثلاث سنوات ، ويؤذى من أقرب النّاس إليه (عمّه أبو لهب) ويُتهم بالكذب والجنون والسحر ، وتُنزع من أمواله ، ويُطرد ويُكذّب ، كُلُّ ذلك وهو صابرٌ محتسب ، فهو القدوة لأصحابه وأمّته ، وليعظم أجره ، وليكون قدوة لمن بعده ممّن يؤذى في سبيل الله .

٢٠

تحمّل الصحابةُ للأذى في سبيل الله

قد قضى اللهُ أنّ الابتلاء والتمحيص سُنّته في أهل الإيمان ، ومن تأمّل في سيرة المعذَبين الأوائل من هذه الأمّة وجد صنوفاً من العذاب ، وألواناً من الأذى قد صبروا عليه أعظم الصبر .

فمنهم من يُصهرُ على رمّال مكة الحارقة حتى يُغمّى عليه من شدة العذاب ، ومنهم من يُلفُّ في حصير ويُدخّن عليه بالنار ، ومنهم من كُوي بالنّار حتى أنّه لا يُطفئها إلا لحم ظهره ، ومنهم من نُزع منه كل شيء كمصعب بن عمير ، ومنهم من عُذّب حتى الموت كياسر وسمية والدا عمّار بن ياسر ، ومنهم من وصل به العذاب أن يُرغم على سبِّ الله ورسوله فيسبهما والعياذ بالله .. في صور من العذاب لا حصر لها .

ومع ذلك صبروا وتحمّلوا رجاء ماعند الله من أجر الصابرين ، ولمعرفتهم بحقيقة طريق الإيمان ، فلتعرف الأمّة قدْر الصحابة ، وليوقنوا أنّ الطريق يحتاج إلى صبر عظيم .

٢١

الهجرة إلى الحبشة

اشتدّ أذى قريش للصحب الكرام ، فأشار عليهم رسول الله أن يهاجروا إلى الحبشة فإنّ فيها ملِكاً لا يُظلمُ عنده أحداً (وتأمّل في انتشار الذكر للحسن للمرء ، فمع بُعد المسافة ، وعدم وجود وسائل إعلام إلا أنّ ذكر النجاشي ذاع في مكة) فيتخفّى الصحب الكرام ليهاجروا عن وطنهم الذي أحبوه ، ويفارقوا أحب الخلق إليهم - رسول الله وإخوانهم المؤمنين - في رحلة إلى المجهول ، في بلاد بعيدة غريبة .

لتعلم عظيم الأذى الذي لحقهم من قومهم ، وليجتمع عليهم الألم النفسي مع الألم البدني ، ولتوقن أنّ هذا الدين عزيز على قلوب الصادقين الأتباع ، ولنعرف فضل الصحب المهاجرين الكرام ، ولذا لمّا رجعوا بعد عشر سنوات أنزلهم رسول الله المنزلة اللائقة بهم واحتفى بهم أعظم احتفاء .

٢٢

إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما

الله يدبر الأمور لعباده الصالحين ، ويقوي شوكتهم من حيث لا يشعرون ، فإنه لما أشتد الأذى بالمسلمين المستضعفين قواهم الله بإسلام هذين الرجلين العظيمين ، الذين كان لهما الأثر العظيم في تقوية قلوب الصحابة ، وإعزاز هذا الدين .

وحمزة عم رسول الله ، أسلم في أول أمره حمية لابن أخيه ومالبث أن سكن الإيمان قلبه ، وانشرح له صدره وكان أعظم الناس حماية لرسول الله .

وعمر - ومأأدراك ما عمر - أسلم بدعوة رسول الله ، وحب الله له ، فقد كان من دعاء رسول الله :

" اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك : بأبي جهل بن هشام ، أو عمر بن الخطاب " فكان أحبهما إلى الله عمر رضي الله عنه .

وأجزم أنك إذا قرأت خبر إسلام عمر فلن يخطئ الدمع عينك فارجع إليه في كتب السير .

٢٣

شتداد أذى قريش له بعد وفاة عمه أبي طالب

سخر اللّٰه لنبيه عمَّه أبا طالب ليكون حامي له من بطش قريش - فقد كان شيخاً ذو مكانة جليلة عندهم - وكان على دينهم ومات عليه .

وبعد وفاته نال المشركون من رسول الله مالم ينالون منه في حياته حتى قال :

" مانالت منّي قريشٌ شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب "

وكان أشدهم أذية له ستةُ أشقياء ، وقد بلغ به من الألم منهم أن دعا عليهم بأسمائهم - وهو المعروف بالرحمة والعفو - ممّا يدل أنّ أذاهم له كان شديداً ، فرفع يديه قائلاً :

" اللهم عليك بأبي جهل وعليك بعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط "قال ابن مسعود : فلقد رأيتهم صرعى في قليب - بئر - بدر .

فتأمّل في هذا الخزي الذي لحق هؤلاء في الدنيا مع العذاب السرمدي الباقي في الآخرة لتوقن بسوء مآل أعداء الرسل وأتباعهم على الحق .

٢٤

أكابر مجرميها

موانع قبول الحق كثيرة، ومن أخطرها :

حُبّ الزعامة ، وخشيت ذهاب المنزلة ، وأنفة المساواة مع العامّة (والدين يرفض هذا كله) ولذا اجتمع أشقى القوم من قريش على إعلان العداوة لهذا الدين ، وأجلبوا بقوتهم على إبطال هذه الدعوة وصدِّ النّاس عنها ، ولكن هيهات هيهات فالحق لا يمكن تركه .

وثمت أسماء لا تزال تُذكر بشرِ حال لعظيم جرمها ، فتشمأز الآذان عند سماعهم ، ويتبادر إلى الذهن الضلال والخسارة ، وخزي الدنيا وعذاب الآخرة السرمدي .

تأمّل ما يتبادر لذهنك عندما تسمع بأبي جهل وأبي لهب وعقبة بن أبي معيط والوليد بن المغيرة وأبيّ بن خلف وأميّة بن خلف وغيرهم .

أسماء تنفر منها الأذن ، فهم الذين نصبو العداوة لرسول الله والمؤمنين فباؤا بالخسران المبين ، فلا هم فازوا بمطلوبهم السيء ، ولا هم أحسنوا لأنفسهم .

٢٥

قوةُ الحق واعتراف الكفّار بصدق نبوة محمد ﷺ

للحق علامات ظاهرة بيّنة لا يُنكرها إلا مكابر، ولا يدفعها إلا من امتلأ قلبُه غيظاً وحَنَقاً على مَنْ جاء به.

وهذا ماكان عليه كفّارُ قريش الذين اعترفوا بصدق نبوة الرسول وصدق ماجاء به، ولكن حملهم الكِبر والحسد على اتّباعه ﷺ.

وكان أعتى كفّار قريش وأعظمهم ظلماً، وأشدهم عداوة هو: أبو جهل (فرعون هذه الأمّة).

فقد كان مستيقناً بصدق النبي حتى قال لبعض أصحابه:

إنّي لأعلم أنّ ماجاء به صدقاً ولكنّي والله لا أفعل.

فلا تغتر بكل من عاد الحق، فهو يعلم صدقه، وأحقية اتباعه، ولكن ثمّة اسباباً كثيرة تمنع من اتباعه، وقد قيل: لا تسل عن الهالك كيف هلك؟ ولكن اسأل عن الناجي وكيف نجى؟

٢٦

ثبات النبي ﷺ مع اغراءات قريش

لا يزال الباطلُ وأهله يستخدمون كل الطرق في رد الحق ، وصد النّاس عنه لأنّ الحق لا يوافق أهواءهم ، ولأنّهم أهل شهوات متنوّعة فلِذا يسعون لرده بكل طريق ممكن . ولقد تقدّم أسلوب الأذى استخدموه مع الرسول ، ولّما رؤوا أنّه لا يُجدي انتقلوا لأسلوب آخر وهو : أسلوب الاغراء .

وهذا عينُ مافعله عتبة بن أبي معيط مع الرسول ﷺ ، فلقد جاءه يوماً ، وقال له يابن اخي : إن كنتَ تريد بما جئتَ به مالاً جمعنا لك حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنتَ تريد شرفاً سوّدناك علينا ، وإن كنتَ تريد به مُلْكنا ملَّكنّاك علينا (نظرات لو تأمّلتها لوجدتها مادية أرضية دونية) فلم يرد عليه رسول الله بشيء إلا بتلاوة صدر سورة فصلت التي فيها :

بيان عظمة الله ، وعظمة آياته ، وتحذيره لمن أعرض ، فرجع عتبةُ خائباً قد أيقن أنّ العقيدة والدين لا يُساوم عليه البتة .

٢٧

تعنّت كفّار قريش في الاستجابة للدعوة

رأى كفّارُ قريش أنّ التخويف والإغراء لم يُفلح في كفّ النبي عن دعوته ، فانتقلوا لأسلوب التعنّت وهو : طلب المعجزات والخوارق التي لن تقنعهم أيضاً لأنّه قد انطوى على قلوبهم الإصرار على التكذيب والإعراض ، فاتجهوا لهذا السبيل ليُعجزوا - زعموا - رسول الله ، ولينفرّوا النّاس عنه ، ولكنّهم قد خابوا ، فقد علم كلُّ عاقل أنّ محمداً قد أتى بالحق ، وأيد بالمعجزات الكثيرة التي تُبرهنّ أنّه رسول الله صدقاً ، ونبيه حقاً .

ومّما طلبه المُتعنّتون من كفّار قريش :

أن يُوسّع عليهم مكة بإزالة جبالها ، ويُفجّر فيها الأنهار ، ويجعل لهم قصوراً وجِناناً ، وكنوزاً من ذهب وفضه ، ويبعث آباءهم الموتى ليشهدوا لهم بصدقه ؛ والله قادرٌ على ذلك ، ولكنّه أراد أن يُوسع لهم ليُؤمنوا لأنّه لو أجاب طلبهم - سبحانه - ولم يؤمنوا عاجلهم بالعقوبة ، فكانت رحمة الله بهم من حيث لا يشعرون .

٢٨

المُصاب بموت خديجة رضي الله عنها

عانى رسول الله ماعانى في دعوته ، ولقي من المتاعب مالقي ، لكنّ الله سخر له زوجه خديجة رضي الله عنها لتكون له سنداً ومعيناً ، فسجل التاريخ مواقفها الرائعة ، ووقوفها بجانبه في أشد الأزمات .

ولّما كان الموت مكتوباً على كل مخلوق ، اختار الله لجواره هذه المرأة الصالحة الراشدة ، وكان وقْعُ هذا المُصاب عظيماً على رسول الله ، فهو اليوم يفقد السند الداخلي له بعدما فقد السند الخارجي بموت عمه أبو طالب .

ماتت بعد خمس وعشرين عاماً قضتها معه ، رأى منها الزوجة الصالحة ، والصاحبة الناصحة ، والأمّ الحنون الراعية للأبناء ، فلم ينس فضلها حتى بعد مماتها ، وكان يُكرم أهلَها وصديقتها ، ويقولُ :

" إنّ حسن العهد من الإيمان "

وفازت برضى ربها وحسن جوارها ببيت قصب لا نَصَب فيه ولا وصب .

٢٩

الرحلةُ إلى الطائف

كان إعراض قريش مؤلماً فهم الأهل والقرابة ، وعدم استجابتهم لرسول الله عجيباً - وهم يعرفونه حق المعرفة - فأراد رسول الله أن يبحث عن أرض جديدة لعل أهلها يقبلون دعوة الحق التي جاء بها ، فكانت القرية الكبرى بعد مكة هي : الطائف .

فعمد بعد وصله إليها إلى سادة ثقيف ، وعرض عليهم الإسلام ، فإذا الجفاء والغلظة ، والتكذيب والإستهزاء ، حتى بلغ بهم أن أغروا سفاءهم به ، فجعلوا يؤذونه بالقول ، ويرمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين ، فرجع مهموماً على وجهه يسير المسافات الطويلة ، ولم يشعر بنفسه إلا بهو - بقرن الثعالب - في ألمّ شديد حتى وصف شدته بأنّه :

(أشدّ يومٍ مرّ عليه في تاريخ دعوته)

وفي خضمّ هذا الألم الذي اعتصر به قلبُه يأتيه ملَكُ الجبال يستأذنه أن يُطبق عليهم جبلي مكة فتنتهي تلك الأمّةُ العاتية ، فيقول كلمته المشهورة التي امتلأت رجاءً :

" لعلَّ الله أن يُخرج من أصلابهم من يُوحدوه " .

فيا لعظيم تلك النفس النقية الطاهرة التي مافتأت ترحم الخلق ، وتأمّل الخير ولو في أجيالهم القادمة .

٣٠

إكرامه بالإسراء والمعراج

إن سألتَ عن أعظم رحلة في تاريخ البشرية ، فالجواب :

هي رحلة الإسراء والمعراج .

هذه الرحلة التي تغيرت فيها نواميس الكونَ كلَه ، وتوقفت معها الأسباب الظاهرة ، وجعل الله فيها من الخوارق ما اهتزت معه القلوب ، وزُلزلت له الأفئدة .

وجاءت هذه الرحلة تكريماً لرسول الله بعد هذه السنوات العشر الطوال في الدعوة التي نال فيها من الأذى مانال ، وصبر فيها لله تعالى ، فأراد ربُّه أن يكافأه بهذا الاصطفاء الذي لم يجعله لأحدٍ من البشر قبله ، وليثبت قلبُه ، ويواصل سيره في نشر هذا الدين العظيم ، وليُكرم أتباعه الذين يرون تكريم الله لنبيهم ، فيثبتوا ويسيروا على ماسار عليه ، وينالوا الكرامات جزاء تصديقهم بهذه الكرامة ، والعطاء الرباني .

٣١

سير رحلة الإسراء

معنى الإسراء : السير بالليل ، وكان إسراءه رحلة أرضية بين مكة والمسجد الأقصى .

والذي عليه السلف أنّ رحلة الإسراء والمعراج كانت بروحه وجسده ﷺ يقظة لا مناماً ، فإنّها لو كانت منامية لم تكن لها ميزة .

فجاءه المَلَك فشق مابين نحره وصدره ، فاستخرج قلبَه فغسله ، وملأه إيماناً وحكمة ليتهيأ لهذه الرحلة العظيمة .

وأُتي بدابّة البُراق - وهو دابّة أكبر من الحمار وأصغر من البغل - ولشدة سرعته يضع حافره عند منتهى طرفه ، فركبه حتى أتى بيتَ المقدس ورأ في سيره عجائب من الآيات (فانظرها في كتب السير)وجُمع له الأنبياء في بيت المقدس وصلى بهم إماماً - نؤمن بهذا لأنّ الله على كل شيء قدير - ولتظهر مكانته ومنزلته عند العالمين ، وأنّه سيدُهم وإمامُهم .

٣٢

رحلة المعراج

المعراج : هو الصعود في السماء .

وقد أكرم الله نبينا بالعروج إلى السماء وشقها له سماءً سماءً حتى وصل إلى سدرة المنتهى - وهي التي ينتهي إليها عِلم الخلائق - فوق السماء السابعة .

(وهذه كرامة لم يُكرَم به أحدٌ من العالمين)

ورأى ﷺ في هذه الرحلة أحوال بعض المعذَبين كأكلة الربا ، والمغتابين ، والزناة ، وأكلة أموال اليتامى وغيرهم .

والتقى ببعض الأنبياء احتفاءً وإجلالاً به عليه الصلاة والسلام ، ورأى نهر الكوثر ، ودخل الجنّةَ ورأى مافيها من النعيم ، ورأى جبريل على صورته الحقيقية له ستمائة جناح ، وكلّم ربَه - سبحانه - كِفاحاً ، وفُرضت عليه الصلوات الخمس ؛ فكانت رحلة عظيمة قوّت إيمانه ، ورأى من الآيات مانقلته من علم اليقين إلى عين اليقين ، فينبغي للأتباع أن تزيدهم هذه الرحلة إيمانه ، فإخباره - وهم المصدِّقون له - تجعلهم وكأنّهم رأوا مارأى .

٣٣

تأمّلات في رحلة الإسراء والمعراج

التأمّل في رحلة الإسراء واقتباس الدروس بحرٌ لا ينتهي ، وعبرٌ لا تنقضي ، ولكننا نذكر منها مايلي :

* ظهور قدرة الله المطلقة الشاملة في الكون ،فهذه السرعة الخارقة للبُراق والعروج بالنبي ورجوعه في ليلة واحدة مع ماشاهدة وماحصل له ، دليل بيّن واضح على قدرة الله على كل شيء .

* بروز مكانة النبي ، ورفعة مقامه ، فهذه الرحلة العجيبة بيّنت منزلته وعلو قدره ، فهذا فضل لم يسبقه إليه أحد ، ولن يدركه بعده بشر ، فينبغي لأتباعه أن يعرفوا علو مكانة نبيهم ، وأن ينزلوه المنزلة اللائقة به .

* بيان مكانة الصلاة ، فهي العبادة الوحيدة التي فُرضت على الرسول بدون واسطة في أرفع مكان يمكن أن يصله بشر .

* قوة إيمان الصحابة - خصوصاً الصدّيق منهم - فقد صدقوا هذا الخبر ليقينهم بصدق نبيهم وإلا فقد ارتدّ من ارتدّ بعد هذه الحادثة .

٣٤

عرْض نفسه ﷺ على القبائل

لم يدع ﷺ طريقة ممكنة في زمانه يُوصل بها دعوته إلا استخدمها ، ومن ذلك :

عرْضُ نفسه على القبائل في موسم الحج (وهو مجمع النّاس ، وتوافد القبائل على مكة) فأراد أن يغتنم هذه الوفود ليعرض عليهم الإسلام وقد رفضته قريش ، وباءت بالخسران لو كانت تعقل !

وهكذا قد يجحدك ، ولا ينتفع بك أقرب النّاس إليك .

وكادت بعض القبائل أن تسبق إلى رسول الله قبل الأنصار ولكنّه التـردد ، وعدم الإقدام على الخير فتأخرواأبد الدهر .

وهكذا الفرص قد تهدرها فتكون أكبر خسارة لك في الدنيا ، ولا يمكنك إدراكها أبداً ، وهذا عين ماحصل لهذه القبائل وبعض الأفراد ، فلذا بادر في أعمال الخير .

٣٥

بدء إسلامِ الأنصار

دخلت السنةُ الحادية عشرة من البعثة ورسول الله يدأبُ في الدعوة إلى ربه لا يفتُرُ ولا يكِلُّ رغم تضييق قريش عليه، فلمّا كان الحج من هذه السنة، وأراد الله بالأنصار خيراً، وبينما رسول الله عند العقبة في مِنى لقي رهطاً من الخزرج فدعاهم للجلوس معه، وقرأ عليهم القرآنَ ودعاهم إلى الله، فأجابوه وآمنوا به، ذلك أنّهم كانوا يسكنون بالمدينة، وغلبتهم اليهود عليها وكانوا يُهددونهم بقرب مبعث نبي يخرج فيتبعونه ويقتلونهم، فلماّ التقى رجال الخزرج بالنبي تذكروا هذا الأمر فآمنوا به وصدقوه، إضافة لِما رأوا من صدق ماكان يدعو إليه فوجهه صلوات ربي وسلامه عليه ليس بوجه كذّاب، ومنطقه وحديثه حديث الصادقين.

فكان هذا اللقاء أول بشائر الخير لأهل المدينة.

٣٦

بيعة العقبة الأولى

لّما رجع ذلك الرهط المبارك إلى المدينة وقد امتلأت قلوبُهم إيماناً بربهم ويقيناً بدينهم ، دعوا قومهم للإسلام (وانظر لفقه المسلم وحرصه على الدعوة للإسلام حتى وإن كان حديث عهد به)

حتى إذا كان العام المقبل وافى موسم الحج اثنا عشر رجلاً منهم ، واجتمعوا برسول الله فبايعوه على الإسلام .

(وإنّك لتتعجب من صبر رسول الله عاماً كاملاً حتى يلتقي بهؤلاء الرهط مرة أخرى ، فلم يستعجل أو يُثير النّاس عليه حتى وافاهم بعد عام ، لنتعلم الصبر على الدعوة وعدم الاستعجال فيها)

وكانت بيعتهم هذه المرة على السمع والطاعة ، والولاء والنصرة في المنشط والمكره .

٣٧

هجرة الصحابة إلى المدينة

وبعد ثلاثة عشر عاماً من الأذى والآلام يأذنُ الله لنبيه وأصحابه بالهجرة إلى المدينة بعدما صار للمسلمين منعة ومكاناً فيها ، فقال لهم ﷺ:

" قد أُخبرتُ بدار هجرتكم وهي يثرب ، فمن أراد الخروج فليخرج إليها "

فصار الصحابةُ يخرجون إليها أرسالاً ، يخرج الرجل والرجلان ، والرهط والجماعة ، مُتخفّين ، مشاةً ورُكباناً .

ولم يكن أمرُ الهجرة بالأمرِ اليسير ، بل سعت قريش لمنعهم ، ووضعت العراقيل في سبيل الصد عنها ولكنّ أمر الله نافذ .

وكان معنى الهجرة :

التجرّد من الأموال ، ومفارقة الوطن بلا رجعة ، والبعد عن الأهل ، والتعرّض للمخاطرة ، وكلها أمور ليست بالهينة على النفس ولكنّ الأمر إذا كان متعلّق برضا الله ، ونعيم الآخرة هانٍ معه كل شيء ، فلذا طابت نفوس الصحابة بهذه الهجرة ، وآثروا الله والدارَ الآخرة .

٣٨

مصعب بن عمير فتى مكة الذي آثر الآخرة

لن تستطيع وأنتَ تدرس السيرة إلا وتقف مع هذه الصحابي الجليل وقفة إجلال ، فإنّك ترى فيه العبدَ المؤمنَ الذي اشترى الآخرة الباقية بدنيا زائلة ، ورغِب في نيل رضى ربه ولو كان ثمنه الخروج منِ كلِّ متاع الدنيا .

فمصعبٌ رضي الله عنه هو فتى أمّه المدلّل ، الذي كان يروح بُحلة ويغدو بأخرى ، وكانت فتيات مكة كلُهنّ يتمنيَن أن يكون زوجاً لهنّ لِما هو عليه من الجمال والدلال ، ولكنّه لّما آمن جرّدته أمّهُ من كلّ هذا ، فلم يكترث أو ينزاجع عن الإيمان بالله ورسوله لأنّ الإيمان قد سَكن في فؤاده ، وحبّ الله ورسوله لم يعد يزاحمه شيء في ذلك القلب العظيم ؛

فلله درُ رجالاً بقية سيرتهم مئات السنوات لم تتزحزح فيها مكانتهم من قلوب المسلمين .

فاللهم اجمعنا بهم في دار كرامتك ، واملأ قلوبَنا من حبهم .

٣٩

أولُّ سفير في الإسلام ونجاحه في الدعوة

بعدما انتشر الإسلامُ في أهل المدينة اختار رسول الله - وهو أعرف النّاس بقدرات أصحابه - مصعبَ بن عمير ليكون معلِّماً لهم ، فلمّا وصل المدينةَ بدأ دعوته فيهم ، وجعل الله فيها البركة ، وازداد عدد المسلمين ، حتى كان اليوم الذي أرادا سعدُ بنُ معاذ - وهو سيد قومه - وأُسيدُ بن حضير وهو من سادات الأنصار - أيضاً - الفتك بمصعب بن عمير ، فأتياه الواحد تلو الآخر ، فنهراه وحذراه ، فرد عليهم رداً جميلاً ، ومن قوله :

اسمعِ قولي فإن أعجبكم وإلا كففتُ عنكم مايؤذيكم ، فعرض عليهما الإسلام بأحسن عرض ، وقرأ عليهما القرآن ، فأسلما من ساعتهما ، وبإسلامهما أسلمت جميع قبيلة بني عبدالأشهل من الأنصار .

فكان انجازاً عظيماً وفرِح به ﷺ كثيراً ، فسعدُ بن معاذ - في الأنصار كأبي بكر في المهاجرين - وما كان ليُسلما لولا قوة مصعب في حجته ، وصدقه في دعوته .

٤٠

بيعةُ العقبةِ الثانية وأعظمُ الاتفاقيات في التاريخ

لّما اقتـرب موسم الحج من السنة الثالثة عشرة للبعثة اجتمع ثلاثة وسبعون رجلاً من الأنصار ، فقالوا :حتى متى نَذَرُ رسولَ الله يُطردُ في جبال مكة ويَخاف ؟

فأجمعوا على الالتقاء به في موسم الحج ، وما أن وصلوا مكة حتى جرت اتصالات بينهم وبين رسول الله واتفقوا على أن يجتمعوا ليلاً في أوسط أيام التشريق عند الجمرة الأولى ليتم بينهما اتفاق - هو من أعظم الاتفاقيات في تاريخ البشرية - وكانت بنود هذه البيعة :

منع رسول الله مّما يمنعوا أنفسهم وأهليهم ، وحفظه والدفاع عنه ، والنصرة التامّة له .

كانت هذه البيعة بداية عهد جديد للإسلام والمسلمين ، إذ بها صار للمسلمين مَنَعة وبلد ، وقوة ورجال تتقوى به دولتهم .

٤١

هجرة النبي وصاحبه

لن يخطء الدمع عينك وأنت تقرأ حديث هجرة النبي وصاحبه في كتب السير كلما قرأته وأعدته .

فهجرته من الأحداث العظام في تاريخ الأمّة حتى أنّ الصحابةَ والأمةَ من بعدهم صاروا يؤرخون بها تاريخهم لعِظم هذا الحَدَث .

وكلُ فصلٍ من فصول هجرته يحمل معان جليلة ، ودروس وتربية للأمّة في حياتها ، فهي رحلة مفصلية تغيّر معها التاريخ والمكان والزمان ، وانتقلت به الأمّة من عهد الخوف إلى عهد الأمان ، ومن نهاية الاستضعاف إلى أول مراقي التمكين والقوة ، وظهرت فيها معيةُ الله لعبده ورسوله وصاحبه ، وظهرت فيها مكانة أبي بكر رضي الله عنه .

٤٢

محاولة قتل النبي ومنعه من الهجرة

لقي رسول الله جميع صنوف الأذى - ومنها : محاولة قتله - وقتل النّبي : أعظم ذنب يرتكبه بشر في حق آدمي ، ولكنّ كفّار قريش لا يتورعون عنه .

ولّما رأى كفّارُ قريش خروج الصحابةُ إلى المدينة أيقنوا أنّ رسول الله سيلحق بهم فاجتمعوا في دار الندوة وتشاوروا ماهم صانعون ، فاستقرّ جرمهم على قتله .

قال سبحانه - حاكياً مكرهم - :

" وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ "

فباؤا بالخسران ، وسجل التاريخ عليهم جرمهم .

أخبر الله رسوله بنية قريش فأمر علياً رضي الله عنه أن يبيتَ مكانه ، وأخبره أنه لن يلحقه أذى ، فأيقن بصدق نبيه ونام مطمئناً ، وأعمى الله أبصارَهم فخرج رسول الله من بينهم وهو يتلو " وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ " فنجّى الله نبيَه وسلّمه منهم .

٤٣

بيت الصديق أبي بكر ودورهم في الهجرة

منّ الله على أبي بكر بالخير كله ، فجعل له المكانة عند أهل مكة ، ووهب له كثرة المال ، ورزقه الزوجة والأولاد .

وكلّ هذه الهبات وظّفها لخدمة هذا الدين ، فاستفاد من مكانته في قريش بالدعوة إلى الله وكان سبباً في إسلام سادات الصحابة ، وأنفق المال كلّه في سبيل الله ، وسخر بيته لرحلة الهجرة ، فهاهي :

عائشة تجهّز المؤنة لهم ، وأسماء تشق نطاقها لتربطه به ، وتُعمّي على والده لّما سألها عنه ، وتواجه أبا جهل لّما حاول معرفة طريقه ، وابنه عبدالله يأتي بأخبار قريش لهما ليلاً ، وغلامه عامر بن فهيرة يرعى لهما الغنم ليذهب أثر أقدامهما .

استنفار كامل لهذا البيت المبارك في هذه الرحلة التاريخية .

ولذا أكرم الله أبا بكر بإسلام جميع أهل بيته (زوجه وأولاده ووالده) قالوا : وهذا مما اختص به أبو بكر فقط من بين كبار الصحابة .

٤٤

بدء الهجرة النبوية

خرج رسولُ الله من بيته فأتى بيت أبي بكر في ساعة لم يكن يأتيه عادة فيها ، فقال أبو بكر لّما رأه : فداه أبي وأمّي ، والله ماجاء به في هذه الساعة إلا أمرٌ .

فدخل رسول الله ، وقال له :

" يا أبا بكر قد أُذن لي في الخروج والهجرة "

فقال أبو بكر : الصحبة يارسول الله - يعني أكون معك صاحباً فيها - ؟

فقال : الصحبة يا أبا بكر .

قالت عائشة : فرأيتُ أبا بكر يبكي من شدة الفرح ، وماعلمتُ أنّ أحداً يبكي من شدة الفرح إلا لّما رأيتُ أبا بكر يبكي .

طَفَحَ السُرورُ عَلَيّ حَتّى إنّهُ
مِن عِظم ما قد سَرّني أبكَاني

وكيف لا يبكي من الفرح وهو سينال الفضل الذي لن يناله أحدٌ من العالمين بشرف صحبة نبيه في الهجرة !! كان أبو بكر قد أعدّ ناقتين للخروج ، فعرضهما على النبي ، فرفض إلا بالثمن ليكمل ويتم أجره .

واستأجرا عبدالله بن أريقط وهو رجلٌ هادياً ماهراً في الطريق ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال .

٤٥

في غار ثور

ليالي غارُ ثور ، وما أدراك ما ليالي غارُ ثور !!

لتعرف عظمة هذه الليالي ، تأمّل مكانتها عند عمر بن الخطاب وقد تمناها بعمله كله ، يقول رضي الله عنه :والله لليلة من أبي بكر ويوم خير من عمل عمر كله .

فداه بنفسه ليلة الغار ، وكيف لا يفدي محمداً وهو خير خلق الله أجمعين ، نفديه بآبائنا وأمهاتنا وأنفسنا .

فإنّه لّما أراد رسول الله الدخول في الغار ، قال له أبو بكر : انتظر استطلع لك الغار ، فدخل قبله حتى إذا كان فيه مايُؤذي من دوابٍ وهوام أصابت أبابكر وسلِم رسولُ الله ، فسد أبو بكر كل جحر قد يكون منه أذىً ، وبقي جحر ولم يجد مايسده به ، فوضع قدمه عليه ، فإن كان فيه مايضر كان هو المُصاب .

فأي نفس كانت تلك النفس !؟

وأي حُب وتضحية كانت لرسول الله !؟

نظر أبو بكر فإذا بالمطاردين من قريش قد وصلوا للغار ، فقال : يارسول الله لو نظر أحدُهم إلى قدمه لرأنا ، فقال له : " لا تحزن إنّ الله معنا "

قال أهل التفسير : عاتب الله أهل الأرض كلهم في هذه الآية إلا أبابكر ، فرضي الله عنه وأرضاه .

٤٦

الخروج من غار ثور ، وبدء المسير للمدينة

لّما سكن الطلبُ عن خير ركب مسافر في التأريخ ، خرج رسولُ الله وصاحبُه ودليلُهم تصحبهم معية الله وحفظه .

خرجوا تحمل تلك الأقدام خِيرة خلْق الله ، وصفوته من عباده ، تخطو على رمال صحراء قاحلة ، وماتدري هذه الأرض أنّها تسجل اليوم أعظم الرحلات ، وأنّها تحمل أطهر الأقدام ، وأصدق النفوس ، في أعظم تحوّل في تاريخ الدنيا ، ليتغير وجهها إلى أجمل الوجوه ، ولتسعد البشرية بميلاد جديد للخليقة ، فموعدُ انتشار النور قد اقترب ، والسعادةُ الخالدة لأهل الأرض قد أزفت .

سيعرف الجاهليون ربَهم ، وستزول كل الأوهام التي صنعتها الشياطين ، وسيعود النّاس للفطرة .

فياسعادة البشرية بهذه الرحلة الميمونة ، ويافرحهم بآثرها ورِواء مستقبلها .

طاردتّه قريش وهو خير الله منزلة ومكانة .

(يا طريداً ملأ الدنيا اسمه * وغدا لحناَ على كل الشفاه
وغدت سيرته أسطورة * يتلقاها رواة عن رواه
ليت شعري هل درى من طاردوا * عابدوا اللات وأتباع مناه
طاردت في الغار من بوأها * سؤدداً لا يبلغ النجم مداه)

٤٧

من دروس الهجرة

دروس الهجرة كثيرة جداً ، وهي متوفرة في مظانها ، ومنها :

* أنّ هذا الدين أغلى مايملك المرء ، فالمحافظة عليه تحتاج التضحية والثبات .
* أنّ الابتلاء سُنّة ماضية في عباد الله الصالحين ، فسادات الأولياء والأصفياء لابد وأن يُمتحنوا ليثبتوا ، ويكونوا قدوات لمن بعدهم .
* إيثار مايُحبُ الله على تُحبّه النفس ، ولو كان ثمن ذلك مفارقة المكان الذي نشأ فيه المرء ، فهاهو يغادرُ مكةَ بنَبْرة من الحزن قائلاً :
" واللهِ إنّك لخيْر أرْض الله ، وأحبُ أرْض الله إلى الله ، ولوْلا أنّي أُخْرِجْت منْك ما خرجْتُ " الترمذي .
* حُسن التوكل على الله والتعلّق به مع الأخذ بالأسباب الممكنة فمن تأمّل في الهجرة وجد هذا ظاهراً من تغيير طريق السير ، والتخفي ثلاثة أيام ، واتخاذ دليلاً للرحلة ، والاستعداد بالراحلة والزاد لها وغير ذلك .
* حُسنُ الصحبة في الحياة ، وتظهر أهمّيتها في المواقف الصعبة ، ففي حدَثُ الهجرة كان أبو بكر نعم الصاحب وخير الرفيق .
* كمال بيت أبي بكر رضي الله عنه ، فجميع أهله قد شاركوا في هذه الهجرة ، فنالوا أجر الأمّة كلها بتسخير أنفسهم لخدمة نبيها .

٤٨

المدينة تستقبل رسول ربّ العالمين

كان الأنصار لّما بلغهم مخرج رسول الله من مكة مهاجراً يخرجون كل يوم ينتظرونه ، يمدون أبصارهم إلى الأفق البعيد ، ويتشوفون لمقدمه بلهفة ، فإذا اشتدّ الحرّ رجعوا ، فلمّا كان يوم الأثنين الثاني عشر من ربيع الأول سنة أربع عشرة من البعثة خرجوا كعادتهم فلمّا حمى الحَرُ رجعوا ، وصعد - يومها - رجلٌ من اليهود على حصن مرتفع فرأى رسولَ الله وأصحابَه فلم يملك اليهودي أن صرخ :

يامعشر العرب ، هذا جَدُكم الذي تنتظرون - يقصد رسول الله - فثار المسلمون إلى السلاح فتلقّوا رسول الله وسُمعت الرّجّةُ والتكبير فرحاً بقدوم رسولِ الله .

فرح به كلُ شيء ، وكيف لا يُفرح به وهو رسول الله !

أضاءات المدينة بمقدمه كما قال أنسٌ رضي الله عنه ، وأيقن المسلمون بمبدأ عهد جديد لدولتهم ، الذي ستكون معه الطمأنينة في العبادة ، وإقامة الشرائع ، ونشر الإسلام .

٤٩

بناء مسجد قُباء

كان أولُ عمل قام به رسول الله ﷺ مع قدومه المدينة هو :
بناء مسجد قباء ، وهو أولُ مسجد يُبنى لعامّة المسلمين لتُقام به الصلوات وليكون محل اجتماع لهم .
بناه لتعلم الأُمةُ بعدُ مكانة المسجد ، الذي هو مكان أعظم فريضة أمر الله بها ، وليعظّموا بيوته ، وليعلموا أنّ مقاصده ليست فقط للصلاة .
فالمسجد - إضافة إلى أنّه مكان إقامة صلاة الجماعة - فهو مكان لقاء المسلمين واجتماعهم وتعلّمهم ، وموطن تقوية شوكتهم .
وقد جاءت الآثار بفضل مسجد قُباء ، وأنّ :
" من جاءه فصلى فيه ركعتين ، فله أجر عمرة تامة "
وكان لهذا المسجد مكانة في قلب نبينا ﷺ، فقد كان يأتيه كل سبت ماشياً مسترجعاً حديث ذكريات الهجرة ، مستحضراً فضل الله عليه بإقامة هذه الدولة ، وجمع هذه الأمّة .

٥٠

ارتحال الرسول من قُباء وأوّل صلاة جمعة للمسلمين

بقي رسول الله ﷺ في قُباء أربعة عشر يوماً ، ولّما كان يوم الجمعة ركب راحلته ، فأدركتهم صلاة الجمعة في ديار بني سالم بن عوف فصلاها بمن معه من المسلمين وكان عددهم مئة ، فكانت هذه أوّل جمعة صلاّها رسولُ الله بالمسلمين .

والمسجد اليوم يُسمى (مسجد الجمعة) والحي (حي الجمعة) ليبقى علامة بارزة في أحداث تاريخ الأمّة ، ولتتذكر وأنت بالمدينة هجرة رسول الله ﷺ وأنت تمرّ على هذه الأماكن المباركة .

وصلاة الجمعة :

هي الاجتماع الأسبوعي للمسلمين في هذا اليوم المعظّم ، فينبغي للمسلمين العناية بها وتعظيمها ، وقد جاءت الآثار في فضلها وأهمّيتها .

٥١

استقبال أهلِ المدينة لرسول الله وفرحهم بمقدمهم

صار رسول الله ﷺ إلى المدينة وكلما مرّ على قبيلة قالوا : هلمّ إلينا يارسول الله ، هلمّ إلى العددِ والعُدّةِ والمَنعة ، فيقول :

" خلوها سبيلها - يعني ناقته - فإنّها مأمورة "

وكان في المدينة قبائل كثيرة ، كلُ قبيلة مستلقة بمساكنها ونَخيلها وزروعها ، وهي كالقرى المتلاصقة ،حتى دخل المدينة قريباً من مسجده اليوم في جوّ مشحونٍ بالفرح والسرور .

صعد فيه الرجالُ والنساء فوق البيوت ، وتفرّق الغلمان والخدم في الطرق ، ينادون :

يارسول الله ، يارسول الله .

وكانت البيوتُ والسكك ترتجّ بأصوات التحميد والتكبير .

قال أنس :

(لّما كان اليوم الذي دخل رسول الله فيه المدينة أضاء منها كُلّ شيء)

فكان يوماً مشهوداً من أيام الله الخالدة .

٥٢

بناء المسجد النبوي

بركت ناقةُ رسول ﷺ الله في مكان مسجده اليوم ، وكانت أرضاً لغلامين يتيمين من بني النجار ، فاشترى ﷺ الأرض منهما وقد رغِبا بهبتها لله ولرسوله ولكنّه رفض إلا بالثمن ليكمل ويُتمّ أجره .

فشرع مع صحابته الكرام ببناء أعظم المساجد بعد المسجد الحرام .

ولك أن تتخيّل السعادة التي ملأت تلك القلوب وهي تحمل الحجارة وتبني فيه ، فهنيئاً لتلك النفوس التي نالت هذا الشرف المنيف في بناء هذا البيت المطهّر ، وذاك البناء الشامخ ليومنا هذا ، ولتعرُف الأمّة إحسانهم رضي الله عنهم .

استغرق البناء اثنا عشر يوماً ، وكان في أبسط صوره (فراشه الرمل ، وأعمدته جذوع النخل ، وسقفه جريد النخل ، وطوله ممّا يلي القبلة إلى مؤخرته مائة ذراع ، والجانبان مثل ذلك أو دونه) صغير المساحة ، متواضع البناء ، ولكنّ العبّادّ فيه إيمانهم يعدل إيمان أهل الأرض كلهم .

٥٣

بناء حُجُرات رسول الله ﷺ

كان رسول الله ﷺ أزهد النّاس في الدنيا - ولو أرادها لأُحضرت بين يديه - لم يغرّه زخرفها ولا بهرجتها التي تغرّ النفوس الميّالة لها ، ذلك أنّ قلبَه كان معلّقاً بالله والدار الآخرة ، وهو أعرف النّاس بالدنيا والآخرة ، فلذا كان يرضى باليسير منها ، ويقنع بالقليل .

فبنى بيوت أزواجه (من جذوع النخل ، وسقف الجريد ، عرض البيت ستة أذرع في ستة أذرع ، قصيرة البناء حتى كان الداخل للبيت يمس سقف البيت بيده ، وكان لضيقه إذا أراد أن يسجد في صلاة الليل أمر عائشة فكفّت رجلها حتى يجد موضعاً لسجوده)

فليتَ شعري مابالُنا نهتم للتـراب وما مصيره التـراب !

وكيف لا يكون لنا في رسولنا أسوة حسنة في التخفّف من الدنيا ، فوالله لو كانت كريمة لما منعها عن رسوله ، فليكـن بلاغنا منها كزاد الراكب .

٥٤

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

بعدما انتهى رسول الله ﷺ من بناء المسجد ، عمل على تقوية المجتمع المحلي للمسلمين المكوّن من المهاجرين والأنصار ذلك أنّهم لم يكونوا من قبيلة واحدة فأراد تقويتهم برابطة الدين (التي هي أقوى الروابط ، وأثبت الوثائق) فكانت هذه المؤاخاة بينهما التي ذابت فيها عصبيات الجاهلية ، وسقطت بها فوارق النسب ، وكان حال الأنصار فيها عجيباً في الإيثار ، وحب إخوانهم من المهاجرين ، وأنزل الله في الثناء عليهم آيات تُتلى إلى يوم القيامة .

لقد ساهمت هذه المؤاخاة في تقوية المجتمع المسلم الجديد في المدينة ، وأشاعت فيه عواطف ومشاعر الحب ، وملأته بأروع الأمثلة من الأخوة والعطاء والإيثار ، وجعلته جسداً واحداً في الآلام والإمال ، ومن هنا كانت حكمته في هذه المؤاخاة التاريخية .

٥٥

فضائل الأنصار

والأنصار : هما قبيلتا الأوس والخزرج سكنا المدينة ، وبعدما منّ الله عليهم بالإسلام سُمّوا (بالأنصار) لأنّهم نصروا رسولَ الله وآووه ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم لدينهم ، فاستحقوا الثناء من الله ورسوله ، وفازوا بالدرجات العلى ، ولذا جاءت بفضائلهم ، وأنّما تعمّدت إضافتها في هذه السلسلة لنعرف مكانتهم ولنتقرّب إلى الله بحبهم ، فمن ذلك :

قوله ﷺ :" آيةُ الإيمان حبُ الأنصار ، وآيةُ النفاق بُغض الأنصار " متفق عليه .

وقوله ﷺ :" الأنصارُ لا يُحبهم إلا مؤمن ولا يُبغضهم إلا منافق ، فمن أحبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله " متفق عليه .

وقوله ﷺ:" لولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار " رواه مسلم .

وقوله ﷺ:" والذي نفسي بيده ، إنّكم أحبُ النّاس إليّ " رواه مسلم .

فهذه الأحاديث ونحوها تُبيّن منزلتهم ، وتوجب محبتهم ، وأنّ محبتهم ممّا يُتقرّب به إلى الله .

٥٦

إسلام عبدالله بن سلام

كان عبدُالله بن سلام عالماً من علماء اليهود ، وقد كان قرأ صفاتَ نبي آخر الزمان ، وكان اليهود ينتظرون خروجه وكانوا يأملون أن يكون منهم ، ولكنّه لّما خرج من العرب حسدوه ولم يؤمنوا به ، إلا أنّ عبدالله بن سلام لّما كان متجرّداً للحق ، ناصحاً لنفسه آمن به واتّبعه .

وكان أوّل إسلامه أنّه لّما قدم رسول الله المدينة ذهب النّاس ليروه ، وكان ابنُ سلام ممّن ذهب ، قال :

(فلمّا تبيّنتُ وجهَه عرفتُ أنّ وجهَه ليس بوجه كذّاب) بأبي أنت وأمّي يارسول ، معالم الصدق بادية على وجهه ، وبراهين صدقه يبيّنها حديثه .

ففاز بجنّة رفيعة ، وثناء من الله ومن رسوله ، وبقيت مآثره وفضائله شاهدة بها الأمّة ، وهكذا هي ثمرات الصدق والإيمان والاتّباع للحق .

أسلم عبدالله بن سلام وهو عالم من علماء اليهود متيقناً بصدق رسول الله فما جاء محمد مصدّقاً لما معه من كتاب نبيه موسى ، ودعوته هي دعوته ، وحاله هو حاله ، ومن هنا نوقن بشناعة كفر اليهود وهم يعلمون صدقه وصفاته .

٥٧

عداء اليهود لرسولنا

اليهودُ أهل كتاب (وهم قومُ بُهت وكذب) كما وصفهم عالمهُم عبدُالله بنُ سلام ، سكنوا المدينة - وهم ليسوا من أهلها - ولكنّهم قدِموا لها طمعاً أن يخرج نبي آخر الزمان منهم ، فقد عرفوا موطن خروجه - وهو المدينة - ولكنّه لما خرج من العرب حسدوه ، وناصبوه العداوة .

وكان أشدهم عداوة له (حييّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب) اجتمعا مع رسول الله من أول النهار حتى آخره ، فلمّا عادا وقعدا لوحدهما ، قال أبو ياسر لحيي : أهو أهو ؟ (يعني : أهو هذا النبي المنتظر ؟)

قال حيي : نعم .

قال : فما نفسك عليه ؟ قال - عياذاً بالله - : عداوتُهُ ما بقيت .

فانظر لهذا الكفر الصراح والحسد البواح ، فمع يقينه بصدقه إلا أنّه نَصَبَ له العداوة طيلة حياته .

وقد كادا لرسول الله وللمؤمنين المكائد طيلة حياتهم حتى انتقم الله منهم وماتوا شرّ ميتة .

٥٨

السنة الأولى من الهجرة

استقرّ رسول الله ﷺ ومن معه في المدينة وبدأ عهد الإعداد لتقوية الدولة الجديدة، وكان رسول الله يواجه أعداء كُثر، ففي الداخل اليهود (وكانوا ثلاثة قبائل : بنو قريظة، وبنو النصير، وبنو قينقاع) وعقد معاهدة معهم، وواجه عداوة المنافقين، وعداوة كفّار قريش والقبائل المعادية للمسلمين من الخارج، ولكنّ حكمة الرسول قد عالجت هذه الأمور.

وكان مشتغلاً بالتعليم لتفقيه الصحابة بأمور دينهم، وببعث السرايا لتوطيد الأمن ولإثبات قوة المسلمين .وفي هذه السنة :

زِيدَ في صلاة الحضر ركعتان، فقد كانت صلاة الحضر والسفر ركعتين.

وُلِد عبدالله بن الزبير، وهو أول مولود للمهاجرين في الإسلام.

وولد النعمان بن بشير، وهو أول مولود للأنصار بعد الهجرة.

وشُرع الأذان.

٥٩

غزوة بدر الكبرى

وهي أشرف غزواته ، وليس في غزواته ما يعدل بها في الفضل ، ويومها كما سماه الله (يوم الفرقان) .

الذي فرّق فيه بين الحق والباطل ، وأعزّ الإسلام وجندَه ، ودمغ فيه الباطل وحزبَه ، وهي التي لمع فيها نجم الإسلام بين قبائل العرب ، إذ وضعت هذه الغزوة من شأن قريش ، وتسامع العرب بارتفاع شأن المسلمين وكانت نتائجها عظيمة جداً .

كانت هذه الغزوة يوم الجمعة السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وكان سببها :

أنّ أبا سفيان - وكان يومها مشركاً - مقبلاً من الشام في قافلة لقريش فيها اموالاً عظيمة (وكانت قريش قد أخذت أموال المسلمين ، فأراودا استـرداد حقهم) فدعا رسول الله من حضر من أصحابه للخروج لملاقاتها ، فخرج بمن كان حاضراً وجاهزاً ، وكان عددهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً يطلبون - فقط - عِير قريش ولم يريدوا قتالاً ، ولكنّ جمعهم الله مع كفّار قريش على غير ميعاد سابق ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

٦٠

استنفار أبو سفيان قريشاً لملاقة الرسول ومن معه

سمع أبو سفيان أنّ رسول الله ﷺ قد استنفر أصحابَه لإدراك العير والمالَ الذي معه ، فبعث لقريش يستنفرهم لأموالهم ، ويخبرهم أنّ محمداً قد عرض لها ، فتجهزّت قريش ونفروا بجميع مايملكون من قوة وعتاد ، وكان عدتهم ألف وثلاثمائة مقاتلا .

ولّما وصلوا الجحفة أرسل اليهم أبو سفيان :

ان ارجعوا فقد نجت القافلة ، فهمّوا بالرجوع إلا أنّ أشقى القوم (أبو جهل) قال : والله لا نرجع حتى نرِد بدراً ، ونشرب الخمر ، وتعزف القيان (المغنيات) وتهابنا العرب .

فكانت غزوة بدر سبب حتفه وتجيّفه فيها أبد الدهر ، وتتابعت عليه اللعنات إلى يوم القيامة .

فكان هو من نَكبَ هؤلاء النتنى من قريش ؛

٦١

مشاورة النبيُ الصحابةَ قبيل موقعة بدر

بلغ رسولُ الله ﷺ خبرَ خروج قريش ليمنعوا عيرهم، فعند ذلك عقد مجلساً تشاورياً ، فتكلم أبو بكر فأحسن ، وتكلم عمر فأجاد ، وتكلّم المقدادُ بنُ عمرو ، فقال : امضِ يارسول لِما أراك الله ، فنحن معك ، والذي بعثك بالحق لو سرتَ بنا إلى بِرَك الغمام - اسم موضع باليمن - لجالدنا معك مَن دونه حتى نبلغه .

قال ابنُ مسعود : فرأيتُ النبي أشرق وجهه وسره قولُ المقداد .

ثم قال : " أشيروا عليّ أيها الناس " ففهمت الأنصارُ أنّه يعنيهم ، فقام سعدُ بن معاذ - سيد الأنصار - فقال :

والله لكأنّك تُريدنا يارسول الله ؟

قال : " أجل " فقال سعد : إني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم (فاظْعَن حيث شئت ، وصِلْ حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت ، واعطنا ما شئت، وما أخذت منّا كان أحبّ إلينا مما تركت، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البِرك من غمدان لنسيرنّ معك، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك) فسُرّ رسول الله بقول سعد ، ونشّطه ذلك ، ثم قال:

سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين (العير أو النفير)

والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم ".

٦٢

البطل عمير بن أبي وقاص يتوارى عن رسول لمقصد عجيب

لّما كان رسول الله ﷺ يستعرضُ الصحابة ويرد الصغار منهم ، كان عمير بن أبي وقاص يتوارى عن رسول الله ، فقال له أخوه سعد بن أبي وقاص : مالك ياأخي ؟ فقال :

إنّي أخاف أن يراني رسولُ الله فيستصغرني فيردني ، وأنا أُحبُ الخروج رجاء أن يرزقني الله الشهادة ، فعُرض على رسول الله فاستصغره وقال له : " ارجع " . فبكى عميرٌ ، فأجازه رسول الله لِما رأى من حرصه .

قال أخوه سعد بن أبي وقاص : فكنت أعقد له حمائل سيفه من صغره .

فلمّا خرج وقاتل أكرمه الله بالشهادة ، وسُطِّر اسمه في عِداد شهداء بدر ليفوز بهذا الفضل المبين .

فتأمّل في هذه الهمّة العالية لهؤلاء الأبطال ، وهم يطلبون الموت في مظانّه رغبة فيما عند الله من أجور الشهداء .

٦٣

التَقدّم لبدر وتدبير الله للصحابة شأنهم

نزل رسول الله ﷺ بالعدوة الدنيا من (بدر) وأنزل اللهُ مطراً ثبّت الأرض للمسلمين ، وكان زَلَقاً وبلاء للكافرين ، وسبق رسولُ الله المشركين نحو بدر (وبدرٌ : بئر) ليحول بينهم وبينه ، وبنى المسلمون العريشَ لرسول الله ، والعريشُ : خيمة من خشب او عيدان تُنصب ويُظلل عليها .

وعبأ رسولُ الله أصحابَه ليلة بدر ، وجعل يُشير بيده في أرض المعركة ، ويقول : " هذا مصرعُ فلان غداً ، وهذا مصرعُ فلان غداً إن شاء الله .."

قال أنسٌ : فوالله ما أخطأ أحدٌ مكانه .

ونزل النعاسُ على المسلمين أمَنَة وطمأنينة ، فناموا جميعاً ، فكانت ليلة هادئة غمرتَ قلوبُ الصحابة بالثقة ، وأخذوا من الراحة قسطهم .

وأمضى رسول الله ﷺ تلك الليلة مصلياً ، باكياً ، متضرعاً لربه ومولاه .

قال عليٌ رضي الله عنه : ولقد رأيتُنا - يعني جميع الصحابة - ليلة بدر ، ومافينا إلا نائم إلا رسولَ الله تحت الشجرة يصلي ويبكي حتى أصبح .

٦٤

صباح يوم بدر

لّما طلع فجْر يوم بدر نادى رسولُ الله ﷺ بالصلاة ، فصلى بالنّاس ثمّ صفّ أصحابَه وأخذ يُعدّل بصفوفهم بقَدَح في يده ، فمرّ بسواد بن غَزيّة ، فطعن في بطنه بالقَدَح ، فقال سواد : أوجعتني يارسول الله فأقدني ، فكشف رسولُ الله عن بطنه الشريف وقال " استقد " فارتمى على بطنه وجعل يقبّله ويبكي ، فقال :

" ماحملك على هذا ياسواد ؟ "

فقال يارسول الله حضر ماترى فأردتُ أن يكون آخر العهد بك أن يمسّ جلدي جلدك ، فدعا له رسولُ الله بخير .

وبعد رجوعه إلى العريش جلس يُناشدُ ربَه ويقول :

" اللهم أنجز لي ماوعدتني ، اللهم أنشدك عهدك ووعدك .." وأخذ يجتهدُ في الدعاء حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأشفق عليه أبو بكر ، فجعل يلتزمه من ورائه ويقول : حسبُك يارسول الله ألححت على ربك فإنّه سينجز لك ما وعدك .

وقال عليٌ لّما كان يوم بدر جئتُ مسرعاً لأنظر إلى رسول الله فوجدته ساجداً يقول " ياحي ياقيوم " لا يزيد عليها فرجعتُ إلى القتال ، ثم جئتُ وهو ساجد يقول ذلك ثم ذهبت للقتال ، ثم جئتُ وهو ساجد يقول ذلك ، فلم يزل يقول ذلك حتى فتح الله عليه .

٦٥

نزول الملائكة في غزوة بدر وبطولات الصحابة

ممّا أكرم الله به أهلَ بدر أن أمدهم بالملائكة فقاتلوا معهم .

وممّا جرى في المعركة أنّ رسولُ الله أخذ حفنة من الحصباء (وهو : الحصى الصغير) ورمى به وجوه المشركين ، فما بقي أحدٌ منهم إلا امتلأت عيناه منه .

وقاتل بنفسه الشريفة حتى قال عليٌ : ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ، وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشدّ النّاس يومئذ بأساً .

وظهرت شجاعة حمزة في ذلك اليوم حتى قال بعضُ قريش عنه : ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل .

واستُشهد عُمير بن الحُمام الذي كان معه تمرات فرمى بها وقال قولته المشهورة : لئن أنا حييتُ حتى آكل تمرات هذه إنّها لحياة طويلة .

فليتَ شعري كم سيستغرق أكل التمرات من وقت !!

ولكنّه الاشتياق للجنّة .

فلمّا بلغ أمّه خبر استشهاده أتت رسولَ الله تسأل عنه وتريد تبكيه ، فقال لها :

" ويحك أوهبلتِ ؟ أوَ جنّة واحدة هي ؟ إنّها جِنان كثيرة ، وإنّ ابنك أصاب الفردوس الأعلى "

٦٦

قتلى بدر من المشركين وجيف القليب

قد قضى الله في عتاة المجرمين أن يُنزل فيهم الخزي في الدنيا قبل ورود الآخرة ، لأنّهم قد طغوا وبغوا وآذوا أوليائه - ولا أعظم جُرماً من عتاة قريش - الذين آذوا أشرف الخلق ، وصدوا عن سبيله ، وسعوا في إبطال شرعه .

وقد كانت واقعة بدر ميقاتاً لإنزال العذاب والخزي بهؤلاء العتاة ففيها هلك : فرعون الأمّة أبو جهل ، وأمّيةُ بنُ خلف ، وعُتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عُتبة ، وأبو البختـري بنُ هشام ونحوهم .

ولّما انتهت المعركة أمر رسولُ الله بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقُذِفوا في بئر من آبار بدر خَبيث مُخَبّث .

وجلس رسول الله ثلاث ليال في بدر بعد انتهاء المعركة ثم أمرل براحلته وصار نحو هذا البئر ، فجعل يناديهم :

" يافلان بن فلان ، ويافلان بن فلان ، أيسرّكم أنّكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربُنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ "

تبكيت وتوبيخ وحسرة وندامة لم يسمع به التاريخ ، ورسالة خالدة لكل من عصى وطغى وبغى وآثر رأى صديق ، وهوى مُتّبعْ ، وبقيت حسرات لا تنتهي ، فرحماك يارحمن .

٦٧

عودة رسولُ الله إلى المدينة منتصراً بعد غزوة بدر

ارتحل النبي ﷺ مؤيداً منصوراً ، قرير العين بنصر الله له ، وقد ازداد إيمانهم بربهم الذي قد وعدهم إحدى الطائفتين أنّها لهم (القافلة ، أو هزيمة المشركين) فزاد يقينهم بموعود الله ، وهم يرون وعده أمام أعينهم .

يسير ومعه سبعين أسيراً يجرون أذيال الخيبة والخسارة وسوء عاقبة الكفر بالله وعدم اتباع رسوله .

وهبهم الله غنيمة المشركين ، فلما كان بالصفراء ، قسّم الغنائم (وضرب عنق النضر بن الحارث ، ثم ضرب عنق عقبة بن أبي معيط هما الأسيران اللذان أمر صلى الله عليه وسلم بقتلهما فقط وذلك لشناعة أفعالهما معه ومع المؤمنين)

دخل المدينة وقد خافه كل عدو له .

فداء الأسرى :

أخذ أربعة آلاف ٤٠٠٠ درهم عن كل أسير امتثالاً لمشورة أبي بكر رضي الله عنه ، أما من كان لا يملك الفداء وهو يحسن الكتابة والقراءة دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم الكتابة والقراءة فإذا تعلموا كان ذلك فداءه كما تقدم .

نتائج غزوة بدر

كان لغزوة بدر نتائج عظيمة جداً على جميع المستويات ، فهي أوّل معركة حقيقة بين المسلمين والكافرين ، وكان مآلها للفريقين ذا شأن ، فلذا حققت نتائج كثيرة للمسلمين ، فمن ذلك :

١ - أنّها قوّت شوكة المسلمين ، وأصبحوا مرهوبين في المدينة وما جاورها ، فهزيمة قريش في ذلك الزمان ليس بالشيء الهيّن .

٢ - أضعفت من هيبة المشركين ، فدخل كثيرٌ من الخلق في دين ، بعدما كان التردد سيّد الموقف عندهم .

٣ - قوّت من حال المستضعفين في مكة وماحولها ممّن كان يُخفي إسلامه .

٤ - أظهرت عداوة اليهود ، الذين بدت منهم بوادر نقض العهد مع رسول الله .

٥ - ظهر نجم النفاق الذي كان مستخفياً قبل هذه الغزوة .

٦ - بدأ الإعداد الجيد لقتال المشركين ، فالمسلون قد توقعوا رغبة المشركين في الانتقام لقتلاهم .

٧ - ارتفعت مكانة الجهاد في سبيل الله ، ورغبة فيه النفوس فيه بعدما سمعوا فضل أهل بدر وعلو مكانتهم .

٦٩

ظهور النفاق بعد غزوة بدر

لم يكن في مكة نِفَاق ، إذ كان المسلمون ضعفاء ، وكان لا يدخل الإسلام يومئذ إلا رجلٌ صادقُ الإيمان لأنّه يعلم أنّه يُعرّض نفسه للتعذيب وربما القتل .

فلمّا انتقل رسولُ الله إلى المدينة ، واجتمع حوله أصحابُه الصادقون من الأنصار شَرق بذلك رجالٌ منهم : عبدالله بن أُبيّ بن سلول - رأسُ المنافقين - وكان مُطاعاً في قومه ، واجتمعتَ عليه الأوس والخزرج ، وقد نظموا له الخرز ليُتوجوه ويملّكوه عليهم ، فلمّا جاء رسول الله وانصرف عنه قومُه حقد عليه ، ورأى أنّ رسول الله قد استلبه مُلْكاً ، فأقام على كُفره .

فلمّا نصر الله رسولَه في غزوة بدر رأى هذا المنافق أنّ أمر رسول الله قد ظهر فدخل هو ومن معه من المنافقين الإسلام تقية ، وكان عددهم ما يقارب ثلاثمائة وسبعين رجلًا وامرأةً ، أحدثوا بين المسلمين من الفُرقة والشِّقاق .

وقد نزلت فيهم آيات كادت تفضحهم بأسمائهم ، وجلّى اللهُ أمرهم بذكر صفاتهم ليحذرهم المؤمنون ، فوجودهم دائم ومستمر في الأمّة ، والقاسم المشترك بينهم (كراهية الإسلام وشرائعه ، وحبّ الكفر وأهله)وخطرهم أعظم من خطر الكافرين .

٧٠

زواج علي بن أبي طالب من فاطمة بنت رسول الله بعد غزوة بدر

أكرم اللهُ علياً رضي الله ببُضعة رسول الله فاطمة رضي الله عنها " سيدة نساءِ أهلِ الجنّة " وكان مهرها درعاً من حديد ، وجُهزّت (بخميلة وقِربة ووسادة من جِلد حشوها ليف) هكذا ببساطة كان مهرها وجهازها ، ولكنّ هذا البيت أنجب سيدا شباب أهل الجنّة (الحسن والحسين) الذيَن أنجبا هذا النسل المبارك لآل بيت النبي فما أبرك التيسير في أمور الزواج .

مات الحسن وعمره ثمانة وأربعين سنة ، فلله دَرّ نفوس بلغت ذُرى المجد مع أنّها فارقت الدنيا في مقتبل الأعمار .

وقد كان الحسنُ سيّداً وسيماً ، عاقلاً ، رزيناً ، جواداً ، ديّناً ، كبير الشأن ، أحبّه رسول الله حبّاً عظيماً وكان يُدخلُ فمَه في فمِه وكان يقول عنه :

" اللهمَ إنّي أُحِبُهُ فأَحِبه ، وأحبّ من يُحبه "

فحبُه قربى عظيمة .

وأصلح الله به بين فئتين عظيمتين مصدقاً لحديثه ، حيث تنازل بالخلافة لمعاوية بن أبي سفيان بعد أن كادت تحصل بينهما مقتلة ، فحقن الله به دماء المسلمين .

وماتت فاطمة وعمرها سبع وعشرين سنة وقيل :

ثمان وعشرون ؛ عمرٌ قصير ، وأثرٌ كبير .

٧١

غزوة أُحُد

- سبب الغزوة ووقتها -

غزوة أُحد من الغزوات العِظام في التاريخ الإسلامي ، نزلت فيها آيات تُتلى إلى يوم القيامة ، وفيها ابتُلي رسول الله والمؤمنون ، وظهر فيها نفاق المنافقين ، وتضحيات الصحابة واستماتتهم في الدفاع عن رسول الله .

كانت يوم السبت النصف من شوال من السنة الثالثة للهجرة .

وكان سببها : أنّه لّما أصيبت قريش بأشرافها يوم بدر أرادوا الثأر لهم ، فتجهزّت قريش واستنفرت حلفاءها من العرب فتجمّع لهم ثلاثة آلاف مقاتل .

فأرسل العباس إلى رسول الله يُخبره بما عزمت عليه قريش .

وصلَت جحافل الكفر المدينة ونزلوا عند جبل أُحُد ، فشاور الرسول أصحابه ، فكان رأيه أن يبقى في المدينة ولكنّ شباب الصحابة رأوا أن يخرجوا إليهم فنزل رسول على رأيهم ، وقرر الخروج لملاقة الكفّار .

٧٢

المسير إلى أُحُد وخذلان المنافقين للمسلمين

سار رسول الله إلى أُحُد - وهو جبل كبير في المدينة - سُمّي أُحُد لتوحده بين الجبال، وإليه نُسبت الغزوة فيُقال (غزوة أُحُد) أحبّه رسولُ الله والمؤمنون وأحبّهم.

- وله وقْعٌ عجيب في النفس عند النظر إليه - وجرّب تحس.

صلّى الجمعة بالنّاس فوعظهم، وحثهم على نصرة الله ورسوله، ثم صلى بهم العصر، ثمّ أذّن مؤذّن رسولُ الله في النّاس للخروج.

عقد الألوية لأصحابه، فأعطى لواء الأوس لأسيد بن حضير، ولواء الخزرج للحُباب بن المنذر، ولواء المهاجرين لمصعب بن عمير، واستعمل على المدينة ابن أمّ مكتوم وخرج بألف من أصحابه.

وقبل طلوع الفجر - أثناء المسير - انسحب رأسُ المنافقين عبدالله بن أُبيّ بثلث الجيش، فتبعهم عبدالله بن حرام يذكّرهم الله، وحق رسوله ولكنّهم أبَوا إلا الخذلان (وهكذا المواقف العصيبة تكشف دسائس النفوس)وهمّت بنو سلمة وبنو حارثة بالرجوع ولكنّ الله عصمهم وفيهم نزل قولُه تعالى:

" إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ "

٧٣

تعبئة الرسول جيشه ووصيته للرماة وبطولات الصحابة

وفي صبيحة يوم السبت الخامس عشر من شوال عبأ رسولُ الله أصحابَه ، وجعل عبدالله بن جبير على خمسين رام على جبل صغير - سُمّي فيما بعد بجبل الرماة - وأمرهم بالثبات في أمكانهم وأن لا يبرحوها البتة .

وبدأت المعركة والتحم الجيشان ، وحمى الوطيس ، وظهرت بطولات الصحابة وكان من أشدّ النّاس قتالاً يومئذ حمزة بن عبدالمطلب فإنّه أخذ يهُدُّ المشركين هدّاً .

ومنهم سعد بن أبي وقاص الذي قاتَل قتالاً شديداً حتى أنّ رسول الله من شدة إعجابه به فدَاه بأبيه وأمّه .

ومنهم مصعب بن عمير الذي ثبت بلواء المسلمين حتى قُطعت ذراعيه ثمّ أخذه بعضديه حتى استُشهد .

ومنهم أبو دجانة الذي أخذ سيف رسول الله فجعل يفلق فيه رؤوس المشركين .

وهكذا بقية الصحابة الذين أبلوا بلاءً شديداً حتى صارت الدائرة على الكافرين وصاروا يفرون من أرض المعركة .

٧٤

مخالفة الرماة أمر الرسول ، ودفاع الصحابة عنه

وبينما المسلمون يُتبِعون المشركين ، ويجمعون الغنائم ، وإذ بالرماة ينزلون من أماكنهم مخالفين أمر رسولهم بالبقاء ، فانتهز خالد بن الوليد فاستدار بسرعة خاطفة ، وقتل عبدَالله بن جبير ومن بقي معه من الرماة ، ثم انقضّ على المسلمين ورجع المشركون لّما رأوا لواءهم قد ارتفع ، فاجتمعوا حوله وطوقوا بالمسلمين ، فلمّا رأى المسلمون ذلك اضطربوا وحصلت الفوضى بينهم وقُتل منهم ناسٌ كثير.

وأشيع مقتل رسول الله واضطربوا اضطراباً شديداً ، ولكنّ رسول الله بقي ثابتاً في مكانه ، وثبت معه اثنا عشر بطلاً من أصحابه ، وشدّ المشركون على النبي فوقع لشِقِه بأبي هو وأمّي ، وأصيبته شفتُه السفلى ، وكسرت رُباعيته ، وشُج في جبهته ، وضُرب على وجنتيه ، وسقط في حفرة ، وجُرحت ركبته فأخذه علي بن أبي طالب بيده حتى استوى قائماً.

ودافع عنه أصحابُه دفاعاً مميتاً سجلوا فيه أعظم البطولات ، فجزاهم الله عن نبيهم خير الجزاء.

٧٥

انحياز الرسول بأصحابه نحو الجبل

استطاع رسولُ الله أن ينحاز بأصحابه نحو الجبل ، وحاولوا المشركون منعه ولكنّهم فشلوا أمام بسالة الشجعان حول رسول الله

وأراد رسولُ الله صعود صخرة في الشِعب فلم يستطع ، فبرك طلحة بن عبيدالله تحته فصعد رسول الله على ظهره حتى جلس على الصخرة ، فقال ﷺ :

" أوجبَ طلحة " أي : وجبت له الجنّة بصنيعه هذا .

وأراد أبيّ بن خلف قتل رسول الله فلمّا دنا منه طعنه رسول الله بحربة ، فكانت سبب موته ، وصار شر النّاس ، يقول ﷺ :

" إنّ شر النّاس من قتل نبي أو قتله نبي "

ثمّ أنزل الله النعاس أمَنَة على المسلمين حين اشتدّ عليهم الألم ، فما منهم أحدٌ إلا ولحقه النوم ، وكان هذا رحمة من الله بهم وقد أبلوا هذا البلاء العظيم .

٧٦

شهداء أُحُد وعلو مرتبتهم (١)

كانت غزوةُ أحد مليئة بالملاحم والبطولات ومنّ الله على سبعين منهم بالشهادة، فربحوا بيعتهم مع ربهم عز وجل.

ومن هؤلاء الشهداء سيدهم - حمزةُ بنُ عبدالمطلب - الذين لم يُصب رسولُ الله بمثله، استُشهد وقد تجاوز الخمسين من عمره.

ومنهم: مصعب بن عمير صاحب اللواء، استشهد بعدما قُطعت ذراعيه فلقي الله صابراً محتسباً.

ومنهم: عمرو بن الجموح الذي كان أعرجاً معذوراً ولكنّه أبى إلا القتال فقُتلِ ووطئ بعرجته الجنّة.

ومنهم: عبدالله بن حرام أحد النقباء، استُشهد وفاز بمنقبة جليلة، وهي: أنّ الله كلمه بلا حجاب.

ومنهم: حنظلة بن عامر الذي خرج من بيته جُنباً فغسلته الملائكة تشريفاً له.

٧٧

شهداء أُحُد وعلو مرتبتهم (2)

ومن شهداء أُحُد :

المُجذّع في الله : عبدالله بن جحش ، الذي سأل ربه الشهادة وأن يلقاه مجذوع - مقطوع - الأنف والأذن (لتكون له شهادة بين يدي الله) فحقق له مراده .

ومنهم : سعد بن الربيع ، الذي وُجد فيه سبعين ضربة ، ووجد ريح الجنّة من وراء جبل أُحُد .

وقد سألوا ربَهم أن يُخبر النّاس مالقوا من الخير والكرامة فأنزل فيهم آيات تُتلى إلى يوم القيامة ، قال تعالى :

" وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ "

أشرف رسولُ الله على شهداء أُحُد ، فقال مزكياً لهم :

" أنا شهيدٌ على هؤلاء يوم القيامة " وهذه منقبة ليست لأحدٍ غيرهم .

وقال : " زملوهم بدمائهم فإنّي قد شهدتُ عليهم " .

٧٨

ذاك يومُ طلحة

كان الصحابةُ إذا تحدّثوا عن يوم أُحد يقولون :

" ذاك يومُ طلحة " . يعني طلحة بن عبيد الله .

ذاك الصحابي الجليل أحدُ العشرة بالجنّة ، وأحدُ الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وممّن مات رسول الله وهو عنه راض .

وكان يُقال له: طلحة الخير ، وطلحة الجُود ، وطلحة الفَيّاض .

قاتل بين يدي رسول الله يوم أُحد قتالاً شديداً ، وكان له سدّاً منيعاً فلم يصل إليه المشركون .

ولّما تجمّع المشركون حول رسول الله وقُتل بين يديه سبعة من الأنصار ، قاتلهم طلحة قتال الأحد عشر رجلاً حتى ضُربت يده فقُطعت أصابعه ، فقال : حِس - من الألم - فقال له ﷺ :

" لو قلتَ : بسم الله لرفعتك الملائكة والنّاس ينظرون "

وفي رواية : " لو قلتَ : بسم الله لرأيتِ يُبنى لك بها بيتٌ في الجنّة وأنت حيٌّ في الدنيا "ولما طأطأ لِرسول الله صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ لِينهضَ على تلك الصخرةِ يومَ أُحدٍ قال :" أوجب طلحةُ " يعني : وجبتَ له الجنّة .

قال بعض الصحابة : رأيتُ يدَ طلحة شلّاء ، وقى بها رسول الله يوم أُحد .

٧٩

الحِكم والغايات المحمودة من غزوة أُحُد

* تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية والتنازع، فالرماة عصو رسول الله بعدم الثبات في أماكنهم، فكانت العاقبة هذه الآلام، فهذه معصية واحدة فكيف بمن يعصي ربَه صبح مساء !؟

* ومنها : حكمة الله وسنّته في رسله وأتباعهم، وأنّها قد جرت بتداول الأيام بينهم وبين أعدائهم لكن تكون العاقبة لهم، فإنّهم لو انتصروا دائماً لدخل معهم غيرهم ولم يتميّز الصادق من غيره.

* ومنها : أنّ الله هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة.

* ومنها : أنّ النفوس تكتسب من العافية الدائمة، والغنى طغياناً، وركوناً إلى العاجلة وذلك مرض يعوقها عن جِدّها في سيرها إلى الله، فإذا ابتُليت عادت لرشدها.

* ومنها : أنّ الشهادة من أعلى المراتب، والشهداء هم خواصّ عباده، والله يُحبّ أن يتخذ من عباده شهداء ولا سبيل لهذا إلا بتسليط العدو عليهم.

(بتصرف واختصار من كتاب زاد المعاد لابن القيم رحمه الله)

٨٠

المدينة بعد غزوة أُحُد

كانت نتائج غزوة أُحُد مؤلمة على رسول الله وعلى الصحابة ، حتى قال عن فقد عمّه حمزة " لن أصب بمثلك " وكان دائماً يتذكر شهداء أُحُد ويزورهم .

ومع شدة وقع هذه الآثار عليهم إلا أنّ سلامة رسول الله قد هوّنت كل خطب .

وظهر النفاق على أشده بعد هذه الغزوة ، وأظهر اليهود شماتتهم بالمسلمين ، وانكشفت حقائقهم .

أعاد النبي الروح لأصحابه ولم يزلّ يذكرهم بفضائل الإيمان ، وازداد الذين آمنوا إيماناً ، وأيقنوا بتداول الأيام ، وبدأت الدولة تُعدُ نفسها لِما بعد هذه المرحلة ، فزاد ثبات المؤمنين ويقينهم ، وتبعتها الأحداث العظام على مستوى الأمّة .

٨١

فاجعة بئر معونة
وحزن الرسول عليهم

وسببها :

أنّ أناساً طلبوا من رسول الله رجالاً يعلمونهم القرآن والسُنّة ، فبعث معهم سبعين رجلاً من الأنصار (يُقال لهم القرّاء) .

وكانوا هؤلاء القُراء يحتطبون في النّهار ، ويصلُّون بالليل في دأب عجيب ، وصبر عظيم بين العبادة والعمل ، رغبة فيما عند الله ، وكرامة لأنفسهم حتى لا يحتاجون لأحد .

فلمّا وصلوا بئر معونة غدر بهم الفاسقِ عامر بن الطفيل واستنفر عليهم قبائلِ من بني سُليم (وهم رِعلاً وذكوان وعُصيّة) فحزن عليهم رسولُ الله حزناً شديداً ، ومكث شهراً يدعو عليهم في كلّ صلاة .

فانظر لوفاء رسولنا لهؤلاء الأخيار ، وكيف كان وَجْدُه وحزنَه عليهم عظيماً ، وماذاك إلا لكمال إنسانيته ، وشدة حبه لأصحابه .

٨٢

إجلاء يهود بنو قينقاع وبنو النضير ، وطردهم من المدينة

كان يسكن المدينة ثلاثة قبائل من اليهود ، وهم : (بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع) وقد عاملهم النّبيﷺ أحسن المعاملة وأوفاها ، ولكن - لّما كانت اليهود قوم غدر وخيانة - استمر غدرهم وخيانتهم معه حتى أجلاهم وطردهم القبيلة تلو الأخرى .

وكانت أوّل قبيلة يتم طردها منهم (بنو قينقاع) وذاك أنّهم أظهروا العداوة لرسول الله ، وفيهم نزل قوله تعالى :

" قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ..."

فحاصرهم خمس عشرة ليلة ثمّ أذن لهم بالخروج ، فخرجوا اتجاه الشام .

وأما بنو النضير فقد طردهم بعد خيانتهم له ، وهمّهم بقتله ، وإلقاء صخرة عليه ، فأخبره جبريلُ من ساعتها ، فنجّاه الله منهم ، ثمّ حاصرهم وقذف الله في قلوبهم الرعب ونزلت فيهم سورة الحشر .

٨٣

حادثة الإفك

وحادثة الإفك : هي ما حصل من المنافقين من اتهام أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالزنى - عياذاً بالله من افترائهم - فهي الحَصَانِ الرزان .

وكان الذي تولى هذا ، وأشاعه رأسُ المنافقين عبدالله بن أبيّ بن سلول ، وذلك : أنّ عائشة خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة بني المصطلق ، فذهبتَ تقضي حاجتها ، وأثناء عودتها تبين لها أنها فقدت عِقدها فرجعت تطلبه ، وبعُدت عن الجيش ، فجاء الذين يحملون هودجها (وهو ماتركب فيه) ووضعوه على البعير ظانين أنّها فيه لخفة وزنها .

قالت : فرجعتُ للجيش فوجدتهم قد ارتحلوا ، فجلست انتظر رجوعهم ، فغلبتني عيني فنمت ، فلم استيقظ إلا على صوت صفوان بن المُعطّل وهو يسترجع ، وعرف أنّ الجيش قد رحلوا عني ، فأناخ راحلته وركبتُ عليه حتى وصلنا الجيش ، فلمّا رأى النّاس ذلك قالوا ماقالوا - من الوقوع في عرضها - وهي لم تعلم بشيء من أقوالهم ، وإنّما رأت تغيّراً من رسول الله لم تعهده ، حتى بلغها مقالة النّاسُ فيها ، فحزنت حُزناً شديداً .

٨٤

ألم حادثة الإفك ، ونزول البراءة من الله

أمضى رسولُ الله شهراً كاملاً يعتـريه مايعتـري البشر من الألم إذا أُصيب في عرضه - وهو يعلم يقيناً طهارة فراشه - ولكنّ البلاء يمضي على المؤمن لتـرتفع درجته في الجنّة وللحكم الكثيرة من وراء هذا القدر .

ومضت أشدُّ ثلاثين يوماً على رسول الله وعائشة وأبي بكر وآل أبي بكر والمؤمنين الصادقين ، وخاض من خاض في هذه الفتنة ، وحمى الله بعضَ النفوس .

وبيّنا رسول الله جالساً عند عائشة بحضور أبويها إذ أُوحي إليه ، واعتـراه مايعتـريه عادة من الشدة عند نزول الوحي ، تقول عائشة :

فأمّا أنا فوالله مافزعتُ ، قد عرفتُ أنّي بريئة ، وأمّا أبواي فوالذي نفسي بيده ما سُرّي عن رسول الله حتى ظننت لتخرُجنّ أنفسُهما فزَقاً من أن يأتي من الله تحقيق ماقال النّاس .

فلمّا سُرّي عن رسول الله سُرّي عنه وهو يضحك ، فكانت أول كلمةٍ تكلّم بها :

" ياعائشة ، أمّا الله عز وجل فقد برأك "

وأنزل الله : " إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ.." العشر آيات من سورة النور من الآية ١١- الآية ٢٠ ، فصار قرآناً يُتلى في براءتها إلى يوم القيامة ، فما أجلّه من شرف ، وما أعظمها من كرامة باقية لها أبد الدهر .

٨٥

الدروس المستفادة من حادثة الإفك

* أنّ المؤمن تعتريه آلام ومصائب متنوّعة ليرفع الله درجته في الجنّة .
* أنّ أهل الفضل قد يقع منهم مايشين ، فقد وقع في عِرض عائشة بعض الصحابة ولكنّ الله عفا عنهم ، وأُقيم على بعضهم الحدّ .
* أنّ رسول الله أُمينه على وحيه ، فلو كان مفترٍ ، ويأتي بالوحي من عنده ماصبر على هذا الألم شهراً كاملاً ، بل اختلق من عنده قرآناً يبرء به زوجه ، فصلوات ربي وسلامه عليه ، وهو الصادق المصدوق .
* أنّ التأني في اتخاذ القرار منهج نبوي ، فلم يستعجل رسولُ في طلاق زوجه حتى راجع أصحابه وشاورهم في ذلك .
* كرامة عائشة رضي الله عنها ، فقد كان يمكن - كما قالت - أن يُري اللّٰه رسولَه في برائتها رؤيا تبرأها ، ولكن لكرامتها وكرامة رسوله أنزل فيها قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة .
* أنّ كلّ بلاء - وإن كان في ظاهره شر - إلا أنّه ينطوي على خيرات كثيرة قال تعالى : " لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ.." وهو جارٍ في أحداث كثيرة .
* أنّ أثم العصاة المشاركين في معصية ما مختلف ، فمن تولى كبره وأشاعه فجرمه أعظم .
* انّه ينبغي إحسان الظنّ بالمسلم - خصوصاً أهل الفضل منهم - وأن يكون حسن الظن هو السائد في المجتمع .

٨٦

غزوة الأحزاب (الخندق)

وسببها : أن نفراً من يهود بني النضير خرجوا إلى مكة ، واجتمعوا بأشراف قريش ، وحرّضوهم على حرب رسول الله ، ووعدوهم من أنفسهم النُصرة والإعانة .

خرجت قريشٌ في أحابيشها (أحلافها) فكانوا أربعة آلاف ، وانضم إليهم ستة آلاف من القبائل ، فصار جمعهم عشرة آلاف (وهم الأحزاب الذين سمّاهم الله) .

مشاورة الرسول أصحابه :

شاور النبيُ أصحابَه ، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق - وهو المنطقة المفتوحة فقط - ولتُؤمنّ المدينة من هذه الجهة لأنّها كانت مشتبكة بالبنيان ، ومحاطة بالحرات والنخيل من بقية الجهات .

شرع المسلمون بحفر الخندق وكان رسولُ الله يحمل التراب - بأبي هو وأمّي - وكانوا يعملون مستعجلين يُبادرون قدوم العدو ، ويُجهدون أنفسهم بالعمل نهاراً ، ويُقاسون من شدة الجوع ، وأصابهم جَهدٌ شديد .

(فلنتذكر - هنا وبغيرها - أنّ بمثل هذه التضحيات وصَلَنا الإسلامُ غضاً طرياً ، فلنعرف قدر الصحابة رضي الله عنهم)

٨٧

مواقف وعِبر يوم الأحزاب

يقول جابر بن عبدالله : لبثنا ثلاثةَ أيام لا نذوق ذَوَاقاً ، وكان رسول الله يعصب على بطنه الحجر من شدة الجوع .

وظهر تخاذل المنافقين الذين كانوا يُثبّطون عزائم المسلمين ، ويُرجفون في المدينة ، ويتسلّلون لِواذاً بلا إذن من رسول الله .

وظهرت معجزات كثيرة في هذه الغزوة ، منها :

تكثير الطعام القليل ، وعَرَض للمسلمين حجراً صلباً ، فاشتكوا لرسول الله ، فجاء وضربه بالمعول ، وقال :" بسم الله " فكسر ثلث الصخرة ، ثم قال : " الله أكبر ، أُعطيت مفاتيح الشام ..ثمّ ضرب أخرى ، وقال :الله أكبر ، أُعطيتُ مفاتيح فارس ... ثمّ ضرب أخرى ، وقال : الله أكبر ، أُعطيتُ مفاتيح اليمن .."

فتأمّل في هذه الظروف يُبشِّر رسولُ الله بالفتح المبين ليُقوي من العزائم ، ويُطمئنُ النفوس ، وماهي إلا سنوات يسيرة فيفتح الله للمسلمين هذه الأمصار .

٨٨

الأحداث في غزوة الخندق

دُهش المشركون وتفاجؤا من الخندق ، فإنّه لم يكن معروفاً عند العرب ، وحاولوا اقتحامه ولكن دون جدوى ، أقاموا على ذلك بضعاً وعشرين ليلة .

وفي هذه الأثناء - وكعادة يهود - نقض بنو قريظة العهد مع رسول الله ، وعظم عند ذلك البلاء على المسلمين ، واشتدّ الخوف ، وضاق الأمر ، وخيف على الذراري ، وأتاهم الأحزاب من فوقهم ، ومن أسفل منهم ، وزاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، حتى ظنّ المؤمنون بربهم كل ظنّ لعظم الخطب والشدة .

وكانوا رسول الله يبعثُ رجاله يطوفون بالمدينة ، ويُظهرون التكبير تخوّفاً من بني قريظة ، وإظهاراً ليقظة المسلمين (وهذا من تمام تدبيره وحنكته ﷺ)

وحصلت مناوشات بين الطرفين ، ولم يكن قتالاً لصعوبة اقتحام الخندق .

وقذف الله الإسلامَ في قلب نُعيم بن مسعود فأتى رسول الله ، وأسلم بين يديه - خُفية - فقال له ﷺ :" خذّل عنّا ما استطعت "

فسعى نُعيم رضي الله عنه بين قريش وغطفان وبين بني قريظة حتى أوقع بينهم الخلاف- انظره في خبر عجيب - .

٨٩

هزيمة الأحزاب ورجوعهم خائبين

كان - ولازال - (الدعاء) هو :

سلاح المؤمنين الأعظم فدعا رسولُ الله ﷺ على الأحزاب بدعوات عظيمة ، منها :

" اللهم مُنزلَ الكتاب، ومجريَ السحاب، وهازمَ الأحزاب، اهزِمهم وانصُرنا عليهم "

وجاء الصحابةُ فقالوا : يارسول الله ، هل من شيء نقوله ، فقد بلغت القلوبُ الحناجر ، فقال :

" نعم ، اللّهُمّ اسْتر عَوْرَاتِنَا.. وَآمِنْ رَوْعَاتِنا " .

فبعث الله ريحاً ، فجعلت تكفأ قدورهم ، وتُطفئ نيرانهم ، وتهدم خيامهم ، وأرسل مع الريح جنداً من الملائكة تزلزهم وتُلقي الرعب في قلوبهم ، فامتلأت قلوبُهم رُعباً وخوفاً ، فتفرّق جمعُ الأحزاب ، ورجعوا خائبين ، وكفى الله المؤمنين القتال .

فلمّا أصبح رسول الله والمسلمون ، وقد فتح الله عليهم ، وأقرّ أعينهم بجلاء الأحزاب ، قال :

" الآن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير إليهم "

قال ابن حجر : وفي هذا عَلَمٌ من أعلام النبوة ، فقد وقعت بعد سنة الهدنة حتى نقضتها قريش ، فكانت سبباً لفتح مكة فوقع الأمر كما قال ﷺ .

٩٠

غزوة بني قُريظة ونتائجها

لّما رجع رسول الله ﷺ من الخندق هو وأصحابُه ، ووضعوا السلاح ، أتاه جبريلُ في صورة الصحابي دحية الكلبي فقال له :

(قد وضعتَ السلاح !؟ والله ماوضعناه فاخرج إليهم - يعني : يهودُ بنو قريظة -)وذاك أنّهم نقضوا عهدهم مع رسول الله .

تقدّم جبريلُ رسولَ الله والمؤمنين ليُزلزل بني قريظة ، ويقذف الرُعب في قلوبهم ، فحاصرهم رسولُ الله خمساً وعشرين ليلة حتى اشتدتْ بهم الحال .

وطلبوا منه أن يعاملهم كما عامل بني النضير وأن يُجليهم من المدينة ، فأبى حتى ينزلوا على حكم الله ورسوله ، فطلب الأوسُ - قوم سعد بن معاذ - أن يعفو عنهم ، فقال ﷺ: " ألا ترضون يامعشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ " قالوا : بلى ، فقال ﷺ : " فذاك إلى سعد بن معاذ "

فلمّا جاء سعدٌ رضي الله عنه أحاط به قومُه وهم يقولون له : يا أبا عمرو ! حلفاؤك ومواليك .

فقال سعدٌ : (آن لسعد أن لا تأخذه في الله لائم) فلمّا سمعوا ذلك منه ، رجعوا لمنازلهم لأنهم أيقنوا أنّه سيحكم بقتلهم .

تقدّم سعدٌ بين يدي رسول الله ، وقال يارسول :يُقتل رجالهم ، وتُسبى ذراريهم ، وتُقسّم أموالهم .

فقال ﷺ :" لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات "

٩١

استشهاد سيدُ الأنصار :
سعد بن معاذ ، وعلو منزلته

كان سعدُ بن معاذ رضي الله عنه في الأنصار كأبي بكر في المهاجرين .

أُصيب سعدٌ بسهم يوم الخندق في أَكْحَلَه (وهو : عرق وسط الذراع) فحسمه رسولُ الله ﷺ فانتفخت يده فتركه ، فنزف الدمُ فحسمه أخرى ، فانتفخت يده ، فلمّا رأى ذلك قال : اللهمّ لا تُخرج نفسي حتى تقرّ عيني من بني قريظة ، فاستمسك عرقُهُ فما قطر حتى حكم فيهم .

لّما حكم بينهم - كما تقدّم ذكره - ورجع لخيمته أتاه رسولُ الله وهو يجود بنفسه فقال له ﷺ:" جزاك الله خيراً من سيّد قوم ، فقد صدقت الله ما وعدته ، والله صادقك ما وعدك "

فلمّا مات أسرع إليه الرسولُ ﷺ والصحابةُ حتى كادت تنقطع شُسُوع نعالهم ، فشكوا للرسول ، فقال لهم ﷺ:" إنّي أخاف أن تسبقنا الملائكة إليه فتغسله .."

وقال ﷺ " لقد هبط يوم مات سعدُ بنُ معاذ سبعون ألف ملَك إلى الأرض ..."

وكان سعدٌ رجلاً ثقيلاً فلمّا حملوه ذكروا خفته فقال ﷺ :" إنّما تحمله الملائكة معهم "

وحزن الصحابةُ على موته حزناً شديداً حتى قالت عائشة : ماكان أحدٌ أشدّ فقداً على المسلمين بعد رسول الله وصاحبيه من سعد .

وبكى عليه أبو بكر وعمر حتى أنّ الصحابة صاروا يفرّقون بين بكاء أبي بكر وبكاء عمر من شدة وجْدهم وحزنهم عليه .

مات وعمره ٣٧ سنة فقط ، فلله درُ نفوساً بلغت المجد وهي تموتُ في مثل هذه الأعمار .

عاش سعدٌ في الإسلام (٦ سنوات فقط)ولكن انظر إلى أثره ، وما أكرمه الله به .

٩٢

الأحداث ما بين غزوة الأحزاب وصلح الحديبية

ما بين سنة 5 - 6 للهجرة النبوية

بعد القضاء على يهود بني قريظة صارت المدينة طاهرة من اليهود إلا بقايا من المنافقين الذين كفروا نعمة الله ، ولم يُؤمنوا بنبيه ﷺ ، وذلك لحسدهم وتمردهم ، وتمكّن الكفر منهم .

فعمل النبي ﷺ على بعث السرايا لتوطيد الأمن حول المدينة وليهاب النّاسُ المسلمين .

ومن ضمنها : سرية عبدالله بن عتيك رضي الله عنه لقتل سلّام بن أبي الحُقيق - وهو من سادات اليهود - الذي ألب الأحزاب على رسول الله ﷺ والمسلمين ، فاستأذن الخزرجُ رسولَ الله في قتله لأنّ الأوس كانوا قد قتلوا كعب بن الأشراف وهو من رؤساء اليهود - أيضاً - وكان الأوس والخزرج يتنافسون في نصرة رسول الله ، فلله درّهم .

والمتأمّل في حياة رسول الله وصحابته الكرام يجدها كلها جِدّ واجتهاد في التعلّم والعبادات ، والجهاد في نشر الإسلام ، فجزاهم الله عن أمّة الإسلام خير الجزاء ، فبسبب جهادهم وأعمالهم انتشر هذا الدين ، وبلغ نورُ الإسلام أقطار الأرض ، فليعرف الخلقُ فضلهم وجلالة أعمالهم .

٩٣

الخروج للعمرة سنّة ٦ للهجرة

وفي شهر ذي القَعْدة من السادس الهجري أخبر الرسول ﷺ أصحابَه أنّه يريدُ العمرة ، ففرح الصحابةُ بذلك وتهيؤا للخروج ، واستنفر رسولُ الله ﷺ الأعرابَ ممّن أسلموا ، فأبطأ الكثيرُ منهم ، وفيهم نزل قوله تعالى :

" سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ... "

الآية ١١ من سورة الفتح .

خرج رسول الله وليس معه إلا سلاح المسافر فقط لأنّه لم يُرد حرباً ، وساق معه الهدي ، ولبّى بذي الحليفة ليعلم النّاس أنّه أنّما خرج زائراً للبيت فقط .فلمّا بلغ عُسفان بلغه أنّ قريشاً جمعوا له جُموعاً يريدون قتاله ، فقال كلمة عظيمة - لو كانت تفقه قريش - :

" يا ويح قريش ! قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرون ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظنّ قريش ، والله إنّي لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يُظهره الله أو تنفرد هذه السالفة " يعني الموت .

والمقصود : تصميم رسول الله على المضي في دعوته حتى الموت .

٩٤

وصول رسولُ الله ﷺ الحديبية وبروك ناقته

وكعادته - بأبي هو وأمّي - ﷺ استشار صحابته في ما جدّ من أمر جمع قريش له ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : خرجت يارسول الله عامداً لهذا البيت لا تُريد قتل أحد ولا حرب أحد ، فتوجّه له فمن صدّنا عنه قاتلناه .

ولّما وصل الحديبيةَ بركة ناقةُ الرسولُ ، فقال :النّاس خلأت القصواء (ومعنى خلأت : بركت فلم تقم) فقال ﷺ :

" ما خلأت القصواء وما ذلك لها بخلق ، لكن حبسها حابس الفيل "

ثمّ قال ﷺ: " والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها " ثم زجر رسول الله ﷺ ناقته فوثبت ثم مال عن دخول مكة ، وسار حتى نزل بأقصى الحديبية .

معجزة لرسول الله ﷺ :شكى النّاسُ إلى رسول الله العطش ، فانتزع سهماً من كِنانته ثمّ أمرهم أن يجعلوه في بئر ، ففار الماء ولم يزل يفور حتى رحلوا عنه .

معجزة أخرى له ﷺ: كان رسول الله يتوضأ من ركوة (إناء صغير من جلد) فشُكي له قلة الماء فوضع يده في الركوة ، فجعل الماءُ يفور من أصابعه ، كأمثال العُيُون

فصلى الله عليه وسلم ماتعاقب الليل والنّهار .

وساطة الرسل بين رسول الله ﷺ وقريش

بقي ﷺ في الحديبية، فأرسلت إليه قريش رسلاً يفاوضونه، وكان ثالثهم عروة بن مسعود الثقفي - وكان على الكفر يومئذ - فرمق عروة أثناء المحاورة مع رسول الله ﷺ فعل أصحابه معه، فرأى عجباً من حبهم وإجلالهم له، فلمّا رجع لقريش يعرض عليهم خطته، قال لهم مارأى:

(أي قوم، والله لقد وفدتُ على الملوك، والله ما رأيتُ ملكاً يعظمه أصحابُهُ ما يُعظّمُ أصحابُ محمدٍ محمداً، والله إن تَنَخّمَ نُخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيماً له، والله:

لقد رأيتُ قوماً لا يُسلمونه لشيء أبداً، وقد عرض عليكم خطة رُشْدٍ فاقبلوها) فقالوا: نرده عن البيت عامِنا هذا ويرجع من قابِل فيدخل مكةَ ويطوفُ بالبيت.

٩٦

إرسال الرسولُ ﷺ عثمان إلى قريش ، وإشاعة مقتله

أرسلِ الرسولُ ﷺ عثمان إلى قريش يُخبرهم أنّه لم يأت لحرب ، وإنّما زائراً للبيت .

فخرج عثمانُ رضي اللّٰه عنه حتى أتى مكةَ فبلّغهم عن نبيه ﷺ ما أرسله به ، فقالت له قريش :

إن شئتَ أن تطوف بالبيت فطف فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسولُ اللّه - فانظر للوفاء ورِفعة القيم التي كان عليها عثمان - فاحتبست قريشٌ عثمانَ ، فشاع بين المسلمين أنّ عثمان قد قُتل ، فقال ﷺ : " لا نبرح حتى نناجز القوم " - أي نحاربهم - ودعا الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان التي كتب اللّٰه رضاه عمّن بايع وكان عددهم : أكثر من ألف وأربعمائة ، وأنزل اللّٰه :

" لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا "

سورة الفتح - ٨١ .

٩٧

بيعة الرضوان ، وفضل من شهد البيعة

لما شاع بين المسلمين مقتل عثمان رضي الله عنه ، دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة ، فثار الصحابة يبايعونه ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين إلا الجد بن قيس - وكان منافقا - قيل له : تعال يستغفر لك رسول الله ، فقال : لأن أجد ضالتي أحب إلي من أن يستغفر لي صاحبكم ، يعني - لعنه الله - : رسول الله .

فقال ﷺ: " كلكم مغفور له ، إلا صاحب الجمل الأحمر " يعني : الجد بن قيس .

فلما بايع الصحابة كلهم أخذ رسول الله ﷺ بيده اليمنى ، وقال : " هذه يد عثمان " فضرب بها على يده اليسرى ، وقال : " هذه لعثمان " .

فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيرا من أيديهم لأنفسهم (فيالكرامته ورفعة منزلة رضي الله عنه) .

على أي شيء كانت البيعة ؟ قيل : على الموت ، وقيل : على عدم الفرار .

فضل من شهد بيعة الرضوان :وردت نصوص كثيرة تدل على على فضل من بايع تحت الشجرة التي سميت : (بيعة الرضوان) لأن الله أخبر بأنه رضي عن أصحابها ، فمنها :قوله ﷺ:" لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة "وعن جابر رضي الله عنه قال : قال لنا رسول الله ﷺ : " أنتم خير أهل الأرض "

٩٨

بنود صلح الحديبية

رضيت قريش برأي نعيم بن مسعود ، فبعثوا سهيل بن عمرو إلى رسول الله وقالوا له : ائت محمدا فصالحه ، ولا يكون في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا .

فلما رآه ﷺ قال لأصحابه :

" قد سهل لكم أمركم ، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل " .

وكتبوا بينهم كتابا جاء فيه :

* يرجع محمد ﷺ عامه هذا فلا يدخل مكة ، وإذا كان العام القابل دخلها .

* وضع الحرب (أي : تقف الحرب) بين الطرفين عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم بعضا .

* من أحب من القبائل أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل ، فدخلت خزاعة في عقد رسول الله وعهده ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش .

* من أتي محمدا ﷺ من قريش رده ، ومن أتى قريشا ممن مع محمد لم يرده (وكان هذا أشد شرط على المسلمين)

٩٩

حزن المسلمين من شروط الصلح ، وموقف عمر رضي الله عنه

لم يكن أحدٌ من الصحابة راضياً عن الصلح إلا أبو بكر رضي الله عنه - فهو أفقه الصحابة - وكان أشدّ الصحابة استياء عمر بن الخطاب ، وكان جريئاً في مراجعة رسول الله ﷺ ، فقال له عمر : ألست نبي الله حقا ؟ قال ﷺ : " بلى " .

قال عمر : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال ﷺ " بلى " قال عمر : فلم نعطي الدنية في ديننا ؟ قال ﷺ : " إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري " قال عمر : أو ليس كنت تُحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : " بلى، فأخبرتك أنّا نأتيه العام ؟ " قال عمر : قلت: لا قال ﷺ : " فإنك آتيه ومُطوّف به " قال عمر فأتيتُ أبا بكر فكان جوابه كجواب النبي ﷺ ، وهو ممّا يدل على كمال فهم أبي بكر رضي الله عنه .

وبقي في نفس عمر رضي الله عنه بعض الحرج، حتى نزل القرآنُ على رسول الله ﷺ بالفتح ، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله، أو فتح هو ؟ قال: نعم .

فطابت نفسه ورجع .

وهذا يدل على كمال مراعاته ﷺ لنفسية أصحابه .

وندم عمر على ما بدر منه من مراجعة نبيه ﷺ واعتراضه عليه ، حتى قال : (ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأُعتق من الذي صنعت ، مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرًا)

١٠٠

رجوع الرسولُ إلى المدينة ونزول سورة الفتح

بعد أن أقام ﷺ بالحديبية نحو عشرين يوماً وفي أثناء مسيرة نزلت عليه سورة الفتح :

" إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا " سورة الفتح ١-٢ .

فقال لأصحابه : " لقد أنزلت عليّ آيةٌ هي أحبُ إليّ من الدنيا جميعاً " فقرأها عليهم ، فقال رجلٌ من القوم : هنيئاً مريئاً يارسول الله ، قد بيّن الله عز وجل لنا مايفعل بك ، فماذا يفعلُ بنا ؟ فأنزل الله : " لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا " الفتح أية (٥)

فصار صُلحُ الحديبية فتحاً للمسلمين ، فعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : إنّكم تَعدُون أنتم الفتحَ (فتح مكة) وقد كان فتحُ مكة فتحاً ، ونحن نعدُ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية .

وقال أنس بن مالك في قوله تعالى :

" إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا " هو : الحديبية .

قال ابنُ كثير : والمراد بالفتح في هذه الآية هو صلح الحديبية ، فإنّه حصل بسببه خيرٌ كثير ، وآمن النّاس ، واجتمع بعضُهم ببعض ، وتكلّم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلمُ النافع والإيمان .

١٠١

مراسلة الرسولُ ﷺ الملوكَ خارج جزيرة العرب

بعد صلح الحديبية واستقرار الأمر في جزيرة العرب ، اتجه رسولُ الله ﷺ لمراسلة الملوك خارجها يدعوهم إلى الإسلام ، لأنّه ما من وسيلة متاحة في زمانه إلا استعملها ﷺ (وبذا يُعلم أنّ وسائل الدعوة ليست توقيفية بنص ، بل كلُ وسيلة تنشر الإسلام وتعاليمه يُستفاد منها ، وما أكثرها في زماننا هذا) وممّن أرسل لهم من ملوك ذلك الزمان :

* النجاشي يدعوه للإسلام ، فأسلم وأهدى لرسول اللهِ هدايا ، ولّما مات صلى عليه رسولُ الله .
* وأرسل إلى هرقل ملك الروم ، وكاد أن يُسلم لولا إيثاره الملك .
* وأرسل إلى كسرى ملك الفرس ، فمزّق كتاب رسولِ الله ، فدعا عليه أن يُمزّق الله ملكه ، فمزّق الله ملكَه .
* وأرسل إلى المقوقس ملك الأسكندرية ، وأهدى لرسول الله مارية وأختها سيرين ، ولكنّه لم يُسلم بسبب ملكه .

وهكذا بدأت قوة الإسلام تظهر ، وذكره يضرب الآفاق .

١٠٢

سِحْرُ اليهود لرسول الله ﷺ

عداوة اليهود لنبينا ﷺ راسخة في نفوسهم ، ساكنة في أفئدتهم فهم قتلة الأنبياء ورثوها كابر عن كابر ، وقد عاملهم نبينا ﷺ كما تقدّم أحسن المعاملة ولكنهم قوم غدر .

ومن غدرهم أنّهم سحروه، سحره :

(المنافق لبيد بن الأعصم وقيل : كان يهودياً) في مشط ومشاطة ، عَقَدَ فيه عَقْداً ، وتفل فيه ، وجعله في وعاء طلع نخل ، حتى جعله تحت صخرة في أسفل بئر ، فوجد نبينا ﷺ أمراً أنكره من نفسه ، حتى يُخيّل إليه أنّه يفعلُ الشيء وهو لم يفعله ، وحتى كان يرى أنّه يأتي النساء ولا يأتيهنّ ، ومرض مرضاً شديداً ، وأخذ عن الطعامَ والشراب ، فلبث على هذا ستة أشهر ، حتى دلّه الله عليه فاستخرجه وأبطله .

وأُنزلت عليه سورتي المعوّذتين وشُفي من السحر .

قال ﷺ :" أُنزلت عليّ سورتان ، فتعوذوا بهنّ ، فإنّه لم يُتعوذ بمثلهنّ " وترك رسول الله ﷺ الذي سحره ، لأنّه لم يكن ينتقمُ لنفسه ، وخوفاً من إثارة فتنة وشر بين النّاس .

١٠٣

غزوة خيبر

وكانت في المُحرّم من السنة السابعة للهجرة، وسببها :

هو أنّ أهلَ خيبر هم الذين حزّبوا الأحزاب ضد المسلمين، وهم الذين - أيضاً - أثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة ضد المسلمين، فلمّا انتهى رسول الله من أمر قريش بهدنة الحديبية تفرّغ لهم.

سار رسولُ الله إلى خيبر (وكانت مُحاطة بالحصون والمزارع والنخل الكثير) ولم يخرج معه إلا من بايع بيعة الرِضوان، وردّ المُخَلّفين الذين تخلّفوا عن غزوة الحديبية لانّهم رجوا أن ينالوا من الغنيمة التي وعدهم الله بها بقوله :

" وَعَدَكُمُ اللّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا .." سورة الفتح آية ٢٠.

وقال الله - سبحانه - واصفاً الحال :" سَيَقُولُ الْمُخَلّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدّلُوا كَلَامَ اللّهِ قُل لّن تَتّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلّا قَلِيلاً " سورة الفتح إية ٥١.

فصبّح النبيُ ﷺ اليهودَ وهم خارجون إلى مزارعهم، فلمّا رأوا المسلمين هربوا إلى حصونهم، فقال ﷺ :" الله أكبرُ، خربت خيبر، إنّا إذا نزلنا بساحة قومٍ فساء صباحُ المنذَرين " بفتح الذال.

١٠٤

وصول الرسول إلى خيبر وفتح حصونها

كانت خيبر - موطن لليهود - حولها ثمانية حصون شديدة ، خمسة في جهة ، وثلاثة في أخرى ، ففتح الله على رسوله ﷺ الحصون الخمسة الواحد تلو الآخر بدعواته ﷺ وشجاعة الصحابةُ الأبطال .

وصار اليهودُ كلما فتح المسلمون حصناً تحولوا إلى آخر حتى فتح الله لهم كل هذا الشق من حصونهم .

ثم انتقل رسول الله إلى الشقّ الثاني من حصونهم وهو : (حصون الكتيبة) وحاصروهم أربعة عشر يوماً ، فلمّا أيقنوا بالهلكة سألوا رسولَ الله ﷺ الصلح .

فصالحهم على :

١ - حقن دماء من في حصونهم من المقاتِلة .

٢- أن لا يكتموا ولا يُغيّبوا شيئاً .

٣ - ترك الذرية لهم .

٤ - يخرجون من خيبر ، ثم سألوه أن يُقرّهم فيها على أن يعملوا على نصف ما خرج منها من الثمر والزرع ، فوافق رسول الله ، ثمّ قال لهم ﷺ : " نتـرككم على ذلك ماشئنا " فأقروه ، حتى أجلاهم عمر في إمارته إلى تيماء .

واستغنى المسلمون بفتح خيبر ، حتى قال ابنُ عمر رضي الله عنهما :

ماشبعنا حتى فتحنا خيبر .

١٠٥

قدومُ مهاجري الحبشة ، وقدوم الأشعريين

قدِم على رسول الله ﷺ وهو بخيبر بعدما فتحها ابنُ عمّه جعفرُ بنُ أبي طالب رضي الله ومعه أصحابُه المهاجرون ، ففرح بهم رسول الله ﷺ ، وقبّل بين عيني جعفر وقال قولته المشهورة : " ما أدري بأيّهما أنا أُسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر " وهذا لكمال محبته لأصحابته .

وكان بقاؤهم في الحبشة خمس عشر سنة ، فكتب اللهُ أجرهم على ماضحّوا في سبيل ربهم عز وجلّ .

وقدم مع مهاجري الحبشة الأشعريّون - قوم أبي موسى الأشعري - وكان عددهم ثلاثة وخمسين رجلاً .

فقال ﷺ - في فضائلهم - :

" يقدُمُ عليكم غداً أقوامٌ ، هم أرقُّ قلوباً للإسلام منكم "

وقال ﷺ - في عطفِهم ، وإحسان بعضهم لبعض - :

" إن الأشعريين إذا أرْمَلوا في الغزو، أو قلّ طعام عِيَالِهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسويّة، فهم مني وأنا منهم " فانظر لفعلهم العجيب ، وتأمّل فيما فازوا به من فضل من قوله ﷺ :

" فهم منّي وأنا منهم " .

١٠٦

وضعُ السُمِّ لرسولِ الله في الشاة

لّما انتهى رسول الله ﷺ من خيبر أهدت له زينبُ بنت الحارث - وهي امرأة يهودية - شاة مصليّة ، وقد سألتَ : أي عضوٍ من الشاة أحبُ إلى محمد ؟فقيل لها الذراع ، فأكثرت فيها السُمّ ، فلمّا وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ وتناول منها الذراع فلاك منها مُضغةً فلم يُسغها ، وأخذ منها بشرُ بن البراءُ بن معرور كما أخذ رسول الله ﷺ فأساغها - أي بلعها - فقال :" إنّ هذا العظم ليُخبرني أنّه مسموم " وقال لأصحابه : " ارفعوا أيديكم "

فقال بشر بن البراء : والذي أكرمك لقد وجدت ذلك في أكلتي فما منعني أن ألفظها إلا أنّي خشيتُ أن أنغصّك طعامك فبلعتها (فأي نفوس هذه النفوس التي لا تُريد أن تُنغّص على رسول الله ولو كان في ذلك ذهاب حياتها !)

١٠٧

قصاص الرسول ﷺ من المرأة اليهودية التي وضعت له السُمّ

ثمّ أرسل رسولُ الله ﷺ إلى تلك المرأةِ اليهودية ، فسألها عن ذلك ؟ فقالت : أردتُ قتلك .

وتركها رسولُ الله ﷺ وعفا عنها ، فلمّا مات بشر بن البراء من أكلته قتلها قِصاصاً .

ولم يزلّ أثر السُم يعاودُ رسول الله ﷺ حتى مات منه ، فقد قال في مرض موته :

" يا عائشة ما أزال أجدُ ألم الطعام الذي أكلت بخيبر ، فهذا أوان انقطاع أبهري من ذلك السُمّ "

فمات ﷺ شهيداً - كما أقسم على ذلك ابنُ مسعود رضي الله عنه - قد قتلته يهود لعنهم الله .

١٠٨

نقض يهود خيبر للعهد

لم يزلْ يهود خيبر يعملون في أرضها على نصف مايخرجُ منها في حياة رسول الله ﷺ ومدة خِلافة أبي بكر رضي الله ، وصدراً من خِلافة عمر رضي الله عنه ثمّ غالوا (خانوا) المسلمين وغشّوهم ، ورموا ابنَ عمر من فوق بيت .

فلمّا بلغ عمرَ ذلك قام في النّاس خطيباً ، فقال :

أيها الناس ، إنّ رسول الله ﷺ كان عامَلَ يهود خيبر على أنّا نُخرجهم إذا شئنا ، وقد عَدَوا على عبد الله بن عمر ، ففدعوا يديهِ ، كما قد بلغكم مع عَدْوهم على الأنصاري قبله لا نشك أنهم أصحابه (أي هم الذين قتلوه) ليس لنا هناك عدو غيرهم ، فمن كان له مال بخيبر فليلحق به ، فإني مخرج يهود .

١٠٩

إجلاء عمرُ ليهود خيبر

فلما أجمع عمر رضي الله عنه على إجلائهم أتاه رئيس اليهود فقال يا أمير المؤمنين أتخرجنا ، وقد أقرنا محمد فقال له عمر : أظننت أني نسيت قوله :

" كيف بك إذا أخرجت من خيبر تعدو بك قلوصك (ناقتك) ليلة بعد ليلة .." وفي رواية :

" كيف بك إذا رقصت بك - أي أسرعت في السير - راحلتك نحو الشام يوما ثم يوما ثم يوما "

فكان علما من أعلام النبوة ، وهو :

الإخبار بالمغيبات وما هو كائن ، فصلوات ربي وسلامه عليه .

عُمرةُ القضاء

لّما دخل هلال ذي القَعدة من السنة السابعة للهجرة أمر رسولُ الله ﷺ أصحابَه بالعمرة كما هو الاتفاق في بنود صلح الحديبية، فخرج ﷺ بألفي رجلاً سوى النساء والصبيان.

وساق معه ستين بدنة، وحمل معه السلاح والدروع والرماح خوفاً من غدر قريش.

أُشيع في مكة: أنّ المسلمين القادمين للعمرة قد أصابتهم الحُمّى، فخرج أكثرُ أهلِ مكة إلى الجبال المحيطة بها خشية العدوى، فلمّا بلغ رسولَ الله ذلك أمر أصحابَه بالرَمَل - وهو سرعة المشي وهزّ المنكبين -.

دخول رسولُ الله ﷺ مكة في عمرة القضاء

دخل ﷺ مكة وأصحابه مُحدِقون به قد توشّحوا السيوفَ يُلبّون ، وهم يخافون عليه من أهل مكة أن يرميه أحد ، فلمّا دخلوا البيتَ أمرهم أن يضطبعوا (والاضطباع : وضع الرداء تحت الإبط الأيمن وكشف الكتف الأيمن) وأن يرملوا الأشواط الثلاثة الأولى للإبقاء عليهم ، فلمّا رأت ذلك قريش عرفتَ أنّهم واهمون ، وأنّ قوتهم باقية .

فلمّا قضى رسولُ الله ﷺ عمرته بقي بمكة ثلاثة ايام كما هو الإتفاق مع قريش متفكراً في فضل ربه عليه ، متعبّداً لله ، آمن على نفسه ، قد صارت له منعة بحفظ الله له ثمّ رعاية وحماية أصحابه رضوان الله عليه ثم رجع قافلاً إلى المدينة قد امتلأ قلبُه شكراً لله .

قلتُ : سبحان الله كيف صار أمرَ رسولِ الله بعد مطاردته من أهل ، فهاهو اليوم يدخلها رغماً عن قريش .

١١٢

إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضي الله عنهما

كان رسول الله ﷺ متعجّباً من تأخر إسلام خالد بن الوليد ، وقد سأل عنه يوم دخل مكة في عمرة القضاء ، وقال لأخيه الوليد :

" مامثله جَهِل الإسلام .." فلمّا بلغه ذلك زادت رغبته في الإسلام .

وفي صفر من السنة الثامنة للهجرة قدِم خالدُ بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمانُ بن طلحة رضي الله عنهم إلى المدينة ليُسلموا ، فلمّا رآهم رسولُ الله ﷺ قال لأصحابه :

" رمتكم مكةُ بأفلاذ أكبادها " .

يقول خالدُ رضي الله عنه - في خبر إسلامهم - :

فدخلنا المدينة فأُخبر بنا رسول الله ﷺ فسُرّ بنا ، فلبستُ من صالح ثيابي ثم عمدتُ إلى رسول الله ﷺ ، فلقيني أخي فقال :

أسرع فإن رسول الله ﷺ قد أُخبر بك فسُرّ بقدومك وهو ينتظركم ، فأسرعنا المشي فاطلعتُ عليه ، فما زال يتبسمُ إلي حتى وقفتُ عليه ، فسلمتُ عليه بالنبوة فردّ عليّ السلام بوجه طلْق ، فقلت إني :أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ﷺ، فقال :

" الحمد لله الذي هداك ، قد كنتُ أرى لك عقلا رجوت
أن لا يُسلمك إلا إلى خير "

غزوةُ مؤتة

وكانت في جُمادى الأولى سنة ثمان للهجرة .

سببها :

هو أنّ شرحبيل بن عمرو الغساني قتل الحارثَ بنَ عُمير رضي الله عنه الذي بعثه رسولُ الله ﷺ بكتابه إلى ملِك بُصرى (وقتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم)

وكانت هذه الحادثة بمثابة إعلان حرب على المسلمين ، فاشتدّ ذلك على رسولِ الله ﷺ حين بلغه الخبر ، ودعا النّاس لقتال الغساسنة ، فتجهّزوا للخروج وكان عددهم ثلاثة آلاف مقاتل .

أمّر رسولُ الله ﷺ على هذا الجيش مولاه زيد بن حارثك ، فإن أُصيب فجعفر بن أبي طالب ، فإن أُصيب فعبدالله بن رواحه رضي الله عنهم جميعاً .

١١٤

غزوةُ مؤتة

تأخر عبدالله بن رواحه عن المُضي من الجيش ، فانظر لأثر ذلك التأخر.

فقد خرج الجيشُ صباح يوم الجمعة ، فقال : ابنُ رواحة أتخلّف فأصلي مع رسولِ الله الجمعة ثم ألحقهم ، فلمّا رآه ﷺ قال له : " ما منعك أن تغدو مع أصحابك ؟ "

قال : أردت الصلاة معك ثمّ ألحقهم ، فقال له رسول الله ﷺ : " لو أنفقت مافي الأرض ما أدركتَ فضل غدْوتهم "

قلتُ : سبحان الله ، هو تخلّف ليُصلي الجمعة مع رسول الله ﷺ ومع ذا فاته فضل الخروج مبكراً مع الجيش ، فكيف بمن يتأخر الطاعات دوماً !!

١١٥

وصول جيش المسلمين إلى مَعَان ، وعَدد أعدادهم

لّما وصل المسلمون مَعَان (وهي من أطراف الأردن اليوم) تبيّن لهم أنّ عدد عدوهم مئتي ألف مقاتل وهم ثلاثة الآف فقط أي (أنّ الواحد منهم يقابله أكثر من ستين رجلاً) فتشاوروا ، هل يكتبون لرسول الله ﷺ يُخبرونه بعدد عدوهم ، فإما أن يُمدهم بالرجال أو يأمرهم بأمر فيُمضوا إليه ، ولم يكن هناك رأيُ بالانسحاب ، فعند ذلك قام ابنُ رواحة وشجّع النّاس على المضي إلى القتال .

١١٦

بدء القتال واستشهاد القادة

بدء القتال وشهادة القادة :

بدء القتال بين الجيشين بفارق واسع في عدد المقاتلين ، ولكنّ قوة الإيمان لا يقفُ أمامها شيء .

أخذ الرايةَ زيدُ بن حارثةُ وجعل يُقاتل بضراوة حتى ارتقى شهيداً ، ثمّ أخذ الراية جعفر بن أبي طالب وطفِق يفلق هام المشركين ، فقُطعت يمينه فأخذ الراية بشماله فقُطعت فاحتضنها بعضديه حتى ارتقى شهيداً كأخيه ، فرأه رسولُ الله يطير بجناحيه في الجنّة ، ثمّ أخذ ابنُ رواحه فنزدّد بعض النزددّ ثم قاتل حتى استشهد .

قال ﷺ - فيهم - : " لقد رُفِعوا إلي في الجنّة ، فيما يرى النائم على سرر من ذهب ، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازورارا - تأخراً - عن سريري صاحبيه ، فقلت : عم هذا ؟

فقيل لي : مضيا وتردد عبد الله بعض النزدد ، ثم مضى "

١١٧

أخْذُ خالدُ بن الوليد رضي الله عنه الرايه وعبقريته في نجاة الجيش

اجتمع المسلمون على أن يأخذ الرايةَ خالد بن الوليد (سيفُ الله المسلول) هكذا سمّاه الرسولُ ﷺ في هذه الغزوة ، فقاتل الكفّار قتالاً شديداً حتى تكسرت بيده تسعة أسياف ومابقي في يديه إلا صحيفةٌ يمانية .

لّما استلم خالدٌ قيادة الجيش قاتل بقية النّهار ، فلمّا أصبح اليوم التالي جعل المقدّمَة في المُؤخرة ، والمؤخرة في المقدّمَة ، وميسرة الجيش ميمنته ، وميمنته ميسرته ، فلمّا لقوا العدو في اليوم التالي أنكر عدُوُهم حالَهم ، وقالوا : قد جاءهم مددٌ ، فحمل عليهم خالدٌ والمسلمون حملة قوية هزمهم الله بها ، وقُتل من الكافرين أعداداً كبيرة ، ثمّ انحاز خالدٌ وانسحب من أرض المعركة شيئاً فشيئاً مع حفظ نظام الجيش ، ولم يتبعهم الرُومان ظانّين أنّ المسلمين يخدعونهم ، فتمّ لخالدٍ ما أراد من الحفظ على جنده أمام هذه الأعداد الهائلة ورجعوا للمدينة ، وقدّ بعض أهلُ العلم هذا نصراً استناداً لقوله ﷺ

- وهو يصف غزوة مؤتة - : " حتى فتح الله عليهم "

١١٨

فتحُ مكة الأعظم

- سببه -كان من بنود الصلح الحديبية أنّ من أحبّ من القبائل أن يدخل في عَقدِ النبي ﷺ وعهده دخل ، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل ، فدخلت خُزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش ، وكانٍ بينهما نزاع في الجاهلية فعَدَت بنو بكر على خزاعة فقتلت منهم رجالاً وساعدهم على ذلك رجالٌ من قريش .

ندمت قريشٌ على صنيعها هذا ، وأيقنت أنّها بذلك نقضت العهد مع رسول الله ﷺ ، فأرسلت أبا سفيان للنبي ﷺ ليجدّد العهد معه ، فأبى رسول الله ذلك ، فحاول مع كبار الصحابة رضوان الله عليهم أن يشفعوا له عند رسول الله ﷺ فأبوا كلهم ، فرجع أبو سفيان مكة خائباً .

١١٩

الاستعداد لفتح مكة

أمر رسولُ الله ﷺ عائشة أن تُجهّز له جَهَازه لحرب قريش ، وقال لها لا تخبري أحداً أني أُريد قريشاً ، وأمر النّاس بالجَهَاز ، فجاءه أبو بكر فأخبره أنه يريد قريشاً ، فقال له : يارسول الله ، أليس بينك وبينهم عهد ومُدة ، فقال ﷺ :

" ألم يبلغك ما صنعوا ببني بكر " لمّ يسمّ رسول الله ﷺ للنّاس الجهة في أوّل الأمر ثمّ أعلمهم أنّه سائرٌ إلى مكة ، وأرسل إلى أهل البادية والقبائل حول المدينة يُخبرهم بقصده ، فقدمت عليه قبائل (أسلم وغِفار ومُزينة وأشجعُ وجهينة) فاجتمع معه عشرة آلاف رجل .

ودعا ﷺ ربَه أن يُعمي عن قريش خبَرَه ، فقال :

" اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها "

السير إلى مكة
وأحداث في الطريق

سار رسول الله ﷺ ومعه عشرة آلاف رجلاً وهم صائمون ، فقد كان خروجه يوم العاشر من رمضان ، ومرّ على قبر أمّه في (الأبواء) فزارها وبكى وأبكى أصحابه .

ولّما بلغ (نبيق العقاب مكان فيما بين مكة والمدينة) لقيه أبو سفيان بن حارث بن عبدالمطلب ابن عمّ رسول الله ﷺ وعبدالله بن أبي أمّيه فأسلما ، فقبل منهما الإسلام مع أنّهما كانا يؤذيانه إيذاءً شديداً ، ولكنّه الرحمة المهداه ﷺ .

وفي مسيره بلغه تعب النّاس من الصيام ، فأفطر وأمر النّاس بالفطر ، ولّما بلغ الجحفة لقيه العباس بن عبدالمطلب مهاجراً بأهله إلى المدينة ، وما كان يعلمُ عن أمر جيش المسلمين ففرح به فرحاً شديداً ، وهو آخر من هاجر إلى المدينة لأنّ بعده تمّ فتح مكة ، وقال ﷺ :

" لا هجرة بعد الفتح "

إشعالُ النّار ، وإسلام سيّد قريش أبي سفيان

وبينما رسول الله ﷺ بمر الظهران (وهو : موطن قبل مكة) أشعل المسلمون نيران عظيمة ، فمر بهذه النيران سادة قريش (أبو سفيان بن حرب ، وسهيل بن عمرو ، وحكيم بن حزام) ففزعوا ، فسمع العباس رضي الله عنه أبا سفيان وهو يتحدث مع أصحابه ، فناداه وقال له :

لو ظفر بك رسول الله ليضربن عنقك ، فاركب حتى آتي بك رسول الله فاستأمنه لك .

١٢٢

رؤية عمر رضي الله لأبي سفيان ، ورد مؤثر على العباس

عرف عمر رضي الله عنه أبا سفيان فجعل يعدو خلفه يريد اللحاق به حتى اجتمعا عند رسول الله ﷺ ، فقال عمر : دعني اضرب عنقه يارسول الله ، فقال العباس : إني قد أجرته يارسول الله ، فلم يزل عمر يطلب قتله حتى قال العباس : مهلا ياعمر ، فوالله لو كان من بني عدي ما قلت هذا ! (يعني : لو كان من قبيلتك ما طلبت قتله)

فقالِ عمر : مهلا يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم (يعني أباه)وماذاك إلا لقرابة العباس من رسول الله ، فهو عمه .

فأي نفوس هذه التي تحب رسول الله ﷺ هذه الحب !!

١٢٣

تحرّك رسولُ الله ﷺ إلى مكة وعظمة جيشه

غادر رسول الله ﷺ مر الظهران إلى مكة ، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها، فمرت القبائل على راياتها، كلما مرت به قبيلة قال أبو سفيان : يا عباس ، من هذه ؟ فيقول سليم (أي قبيلة سليم) فيقول : مالي ولسليم ؟ ثم تمر به القبيلة فيقول : يا عباس، من هؤلاء ؟ فيقول : مزينة، فيقول : ما لي ولمزينة ؟ حتى نفذت القبائل ، حتى مر به رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق (العيون) من الحديد، فقال أبو سفيان : سبحان الله ! يا عباس ، من هؤلاء ؟ قال : هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة .

ثم قال : والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما .

قال العباس : يا أبا سفيان ، إنها النبوة ، قال أبو سفيان : فنعم إذن .

قال بعض أهل العلم : وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ حتى لا يفكر أبو سفيان في القتال ويسلم مكة ، لأنه ﷺ كان لا يريد قتالا .

١٢٤

وصول رسولِ الله ﷺ مشارف مكة وتقسيم الجيش وأمرهم بعدم قتال إلا مَن قاتل

وصل رسولُ الله ﷺ (ذي طوى) عند مدخل مكة ، فأعاد ترتيب الجيش ، فجعل خالدَ بن الوليد على الميمنة ومعه قبائل (أسلم وسُليم وغِفار ومُزينة وجُهينة) وجعل على الميسرة الزبير بن العوّام ومعه المهاجرون ، وجعل على مقدّمته قيس بن سعد بن عُبادة ومعه الأنصار ، وجعل أبا عبيدة على المشاة ، وعهد ﷺ لامرائه : " لا تُقاتلوا إلا مَنْ قاتلكم ، ونهاهم عن قتل النساء والصبيان ، وأن لا يُجهزوا على جريح ، ولا يُتبعوا مُدبراً (هارباً) " فصلوات ربي عليه ما أعظم رحمته بهم . تحرّكت كل كتِيبة على الطريق التي كُلّفت الدخول منه ، ولم تلق أية مقاومة تُذكرَ إلا خالد بن الوليد ، فلقيه صفوان بن أمّيه وعكرمة بن جهل وسهيل بن عمرو في جمع من أوباش قريش ، فمنعوه من الدخول ، وشهروا السلاح ، فقاتلهم خالدٌ فقتل منهم قريباً من عشرين رجلاً ، فأرسل إليه رسولُ الله ﷺ يأمره أن يرفع يده عن القتل .

١٢٥

دخول رسولُ الله ﷺ مكة في يوم الفتح الأعظم

دخل رسولُ الله ﷺ مكة في كتيبته الخضراء، وبين يديه المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم، وذلك بُكرة يوم الجمعة لعشرٍ بقين من رمضان، وهو راكبٌ ناقته القصواء مُرْدِفاً أسامة بن زَيد رضي الله عنهما، واضعاً رأسه الشريف على راحلته تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إنّ لحيته لتكاد تَمَسّ وسَط رَحْلِهِ، وهو يقرأ سورة الفتح يُرجّع ويُردد بها صوته.

يا الله لك أن تتخيّل شعوره وشعور أصحابُه معه وهم يرون هذه الكرامة بأعينهم جميعاً، وهم يعيشون هذه اللحظات العظيمة في أعظم فتح في الدنيا.

يتذكر اليوم رسولُ الله ﷺ يوم طُرد من مكة وحيداً خائفاً تتابعه قريش للفتك به، فإذا به اليوم يدخلها فاتحاً وحولَه عشرة آلاف صاحب، لو فكر أحدُ الكفّار بأذيته قام بوجهه الجيشُ كلُه.

وتأمّل في تواضعه بأبي هو وأمي، وكيف امتلأ قلبُه شكراً وعِرفاناً بأنّ الفضل لله وحده دون سواه.

فاللهم اجزه عنّا خير الجزاء.

١٢٦

اغتساله ﷺ في دار أمِّ هاني
وصلاته ثمان ركعات ، وطوافه بالكعبة
وتكسير الأصنام

لّما ارتفع النهار أتي رسولُ الله ﷺ دار أم هانيء بنت أبي طالب رضي الله عنها فاغتسل ثمّ صلى ثمان ركعات .

قال ابن القيم رحمه الله :

وكانت هذه صلاة الفتح ، وكانوا أمراء الإسلام إذا فتحوا حصنًا أو بلدًا صلوا عقيب الفتح هذه الصلاة اقتداءً برسول الله ﷺ .

ثمّ أتى رسولُ الله ﷺ المسجد الحرام ، والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله وطاف به سبعاً وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً فجعل كلما دنا من صنم يطعنها بمحجنه ويقول :

" وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا "

(تخيّل معي جموع المسلمين وأهل مكة وهم يشاهون نصرَ الله لرسوله وصدقه لوعده وهزيمة كل وقف في وجه هذا الدين العظيم !)

ثمّ دخل الكعبة ، فوجد صوراً فمحاها ، وصلّى ركعتين داخل الكعبة ثمّ خرج حامداً شاكراً ربه على هذا الفتح المبين ، فقد صارت مكة دار إسلام ، طاهرة من الأصنام ..

خطبته ﷺ لأهلِ مكة وعفوه عنهم

وقف رسولُ الله ﷺ على باب الكعبة وقد أحاط النّاسُ ينتظرون ما هو فاعلٌ بهم ، فأخذ بعضادتي الباب ، فقال :

" الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الاحزاب وحده .."

" يا أيّها النّاس ، إنّ الله قد أذهب عنكم عُبيّة الجاهلية ، وتعاظمها بآبائها ، النّاسُ رجلان : بَرٌّ تقيٌّ كريم على الله عز وجل ، وفاجرٌ شقيٌّ هيّنٌ على الله عز وجل ، والنّاس كُلُهم بنو آدم ، وخُلق آدمُ من تراب ..."

" يا معشر قريش ، ما ترون أنّي فاعلٌ بكم ؟ " قالوا : خيراً ، أخٌ كريم ، وابنُ أخٍ كريم .

فقال :

" أقولُ لكم كما قال يوسفُ لإخوته قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، اذهبوا فأنتم الطلقاء "

فأي نفسٍ هذه النفس العظيمة التي تعفو وهي مقتدرة على من يستحق العقاب ، ولكنّه أخلاق النّبوة التي تحلى بها رسولُ الله ﷺ .

أعماله ﷺ أثناء بقاءه بمكة

بقي رسول الله ﷺ في مكة تسعة عشر يوماً يقصُر الصلاة، واجتمع النّاس ليبايبعوا رسولَ الله ﷺ، فجلس لهم على الصفا، فجاءه الكبارُ والصغار فبايعوه على الإسلام والإيمان والجهاد، وعلى السمع والطاعة فيما استطاعوا، وطلب بعضُهم البيعة على الهجرة، فقال لهم ﷺ:

" ذهب أهلُ الهجرة بما فيها " أي من الأجور.

وقال ﷺ : " لا هجرة بعد الفتح .."

ثمّ خطب الناسَ، وبيّن بقاء حُرمة مكة، وأنّ الله أحلها له ساعة من النّهار ثم عادت الحُرمة لها فلا يحلّ لأحدٍ القتال فيها.

بعث تميماً الخزاعي لتجديد حدود الحرم

ثمّ بعث تميماً بن أسيد الخُزاعي ليُجدِّد أنصاب الحرم ، أي : حدوده وعلاماته .

وبثّ خلالِ بقاءه في مكة سرياه لكسر الأوثان التي كانت حول الكعبة فكسرت كلها ، وبعث الأبطال من أصحابه لهدم الأصنام التي كانت تُعبدُ من دون الله .

فبعث سعد بن زيد رضي الله عنه إلى (مناة) فهدم صنمها ، وبعث خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى (العُزّى) فهدمها ، وبعث عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى (سُواع) فهدم صنمها .

١٣٠

خروج النبي ﷺ إلى حُنين

وحُنين (واد بين مكة والطائف)
وكان سبب خروجه لها : أنّه لّما فتح مكة خاف أشراف قبيلتي هوازن وثقيف أن يغزوهم رسول الله ﷺ فحشدوا وعزموا على قتاله ، فلمّا سمع بهم ﷺ جهّز لمواجهتهم وخرج إلى حُنين ومع اثنا عشر ألفاً من المسلمين ، ألفان من حديثي الإسلام (من الطلقاء) وجاء رجل من الصحابة لرسول الله يُخبره أنّ هوازن خرجت عن بكرة أبيها واجتمعوا في حُنين ، فتبسم رسول الله ، وقال :
" تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله "
عبأ رسول الله أصحابه في السَحَر ، وعقد الألولية والرايات لأصحابه وركب بغلته البيضاء ولبس درعين والمغفر والبَيْضة (وهي ما يُحتمى به) كل ذلك فعلاً وتعليماً للأخذ بالأسباب المكنة .

هزيمة المسلمين في أوّل الغزوة ، وثبات رسول الله ﷺ

بدأت المعركة ونزل المسلمون الوادي وكانت هوازن قد كمنوا للمسلمين فيه ، فرشقوهم بالنبال وكانوا رُماة لا يكاد يسقط لهم سهم ، فبدأ الهروب من المسلمين خصوصاً الطلقاء حديثي الإسلام .

انحاز رسول الله ﷺ ومعه نفرٌ قليل من المهاجرين والأنصار وأخذ ينادي :

" إلَيّ أيّها النّاس ، هلموا إلي ، أنّا رسول الله .." لكن لم يتفلت منهم أحد .

ثمّ أخذ رسول الله يركض ببغلته قِبل المشركين ، وهو يقول :

أنّا النبي لا كذِب أن ابنُ عبدالمطلب .

فانظر للشجاعة والقوة والبسالة وهو في سنّ الستين ، وينادي (أنا النّبي) لينوّه بمكانه ، كلّ ذلك ثقة بنصر الله ، ثمّ نزل عن بغلته فاستنصر ربَه ودعاه :

" اللهم نزّل نصرك "

" اللهم بك أحاول ، وبك أُصاول ، وبك أُقاتل "

وأخذ يُقاتل والصحابة يتقون به لشجاعته وثباته كعادته ، يقول عليّ رضي الله عنه :

كنّا إذا حمي الوطيس واشتدّ القتال اتقينا برسول الله ، فيكون هو أدنى إلى العدو .

وهذا لقوته وشجاعته ﷺ .

١٣٢

رجوعُ المسلمين وانهزام الكفّار

أمر رسولُ الله ﷺ عمّه العباس - وكان رجلاً صيّتا عالي الصوت - " نادِ أصحاب السَمُرة " أي : شجرة بيعة الرضوان .

ونادى رسولُ الله ﷺ:

" يال للمهاجرين ، يال للمهاجرين " ثم قال :

" يال الأنصار ، يال الأنصار "

فلمّا سمع المسلمون ذلك أقبلوا مسرعين نحو الصوت .

وتأمّل مَنْ نادى رسول الله ﷺ!؟

لقد نادى أصحاب العقائد الراسخة ، والإيمان الصادق ، فهم - فقط - الذين يثبتون في هذه المواقف الشديدة ، وهم الذين تنجح بهم الرسالات .

وأنزل الله الملائكة لإرهاب الكافرين .

وظهرت شجاعة الصحابة بعد هذا الثبات في الفتك بأعداء الله ورسوله وغنم المسلمون غنائم كثيرة ولم يقسمها حتى انصرف من غزوة الطائف .

١٣٣

غزوة الطائف

وهي امتداد لغزوة حُنين ، وذلك أنّ معظم فُلول هوازن وثقيف دخلوا الطائف مع قائدهم مالك بن عوف فسار إليهم رسولُ الله ﷺ .

حاصر رسولُ الله ﷺ الطائف فصار أهلُ الطائف يرمون المسلمين بالنبال والحجارة رمياً شديداً حتى أُصيب كثيرٌ من المسلمين بجراح ، فنصب رسول الله ﷺ المنجنيق على أهل الطائف وقذف به القذائف - وكان أوّل منجنيق يُرمى به في الإسلام - ولمّا طال حصار الطائف واستعصى على المسلمين ، فقال ﷺ لعمر رضي الله : " ناد في النّاس : إنّا قافلون إن شاء الله " فثقُل ذلك على المسلمين واستنكروه ، وقالوا نذهب ولا نفتحه ، فقال لهم ﷺ :

" اغدوا على القتال " فغدوا فأصابهم جراح فقالوا يارسول الله : أحرقتنا نبال ثقيف ، فادع الله عليهم ، فقال الرحمة المهداة ﷺ :

" اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم " ثمّ قال :

" إنّا قافلون غدا إن شاء الله " فسُروا بذلك وأذعنوا ، ورحلوا ورسولُ الله يضحك من تغيّر رأيهم .

قُدُوم وفد هَوَازن ورجوع السبي لهم (١)

وبعد أن قُسّمت الغنائم أقبل وفد هوازن ، فأسلموا ثم قالوا : يا رسول اللّه ، إنّ فيمن أصبتم الأمهات والأخوات والعمات والخالات (يعنون الأسرى منهم) وهن مخازي الأقوام .

فقال لهم ﷺ :

" إنّ معي من ترون (يعني صحابته) .. فإذا إذا صليت الغداة ـ أي صلاة الظهر ـ فقوموا ، فقولوا : إنا نستشفع برسول اللّه إلى المؤمنين، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول اللّه أن يرد إلينا نسائنا وأبنائنا "فلما صلي الغداة ، قاموا فقالوا ذلك ، فقال رسول اللّه : " أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم " فقال المهاجرون والأنصار : ما كان لنا فهو لرسول اللّه ﷺ ، فكانوا أسرع النّاس ائتماراً لرسول الله ﷺ .

قُدُوم وفد هَوَازن ورجوع السبي لهم (2)

تمسّك بعضُ القبائل بحقهم ، فقال ﷺ:

" إنّ هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين، وقد كنت استأنيت سَبْيَهُمْ - أي تأخر في توزيعه لكي يقدموا مسلمين - وقد خيّرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئاً ، فمن كان عنده منهن شيء فطابت نفسه بأن يرده فسبيل ذلك ، ومن أحب أن يستمسك بحقه فليرد عليهم ، وله بكل فريضة ست فرائض (أي : من الإبل) من أول ما يفيء اللّه علينا "

فردّ النّاس على هوازن جميع السبي .

فانظر لرحمة رسول الله ﷺ بهم وكيف انتظرهم هذه مدة عشرة أيام ولم يوزع السبي ، كلُ ذلك رجاء أن تأتي قبيلة هوازن مسلمة فيأخذوا سببهم ، وانظر - أيضاً - لحكمته في إرضاء أصحابِه .

١٣٦

عَتْبُ الأنصار على الرسول ﷺ، وخطبته فيهم (١)

أعطى رسول الله ﷺ كلّ النّاس من غنائم هوزان إلا الأنصار رضي الله عنهم، فوجدوا (أي : حزنوا وعتبوا) على رسول الله ﷺ في أنفسهم.

وقال شبابُهم : يغفر الله لرسول الله يُعطي قريشاً ويتـركنا ، وسيوفنا تقطُرُ من دمائهم.

فأتى سعدُ بن عبادة رسولَ الله يُخبره بما في نفوس الأنصار من العَتَب.

فقال له ﷺ: " فاجمع لي قومَك " فجمعهم له ،فأتاهم رسولُ الله ﷺ فحمد الله ثمّ قال :" يا معشر الأنصار ما قالة (كلاماً وقولاً) بلغتني عنكم وجِدة وجدتموها في أنفسكم ؛ ألم تكونوا ضُلالًا فهداكم الله بي ، وعالة -فقراء- فأغناكم الله بي ، وأعداء فألّف الله بين قلوبكم ؟ "

قالوا : بل الله ورسوله أمنّ وأفضل ، قال:" ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟ "

قالوا : وبماذا نجيبك يا رسول الله ، ولله ولرسوله المنُّ والفضل ...

(يتبع)

عَتْبُ الأنصار على الرسول ﷺ، وخطبته فيهم (١)

قال ﷺ :

" أما والله لو شئتم لقلتم ، فَلَصَدَقْتُمْ ، وَصُدِّقْتُمْ ، أتيتنا مُكَذَّبًا فصدقناك ، ومخذولًا فنصرناك ، وطريدًا فآويناك ، وعائِلًا فآسيناك ؛ أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لُعاعةٍ من الدنيا تألّفتُ بها قومًا ليُسلِموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب النّاسُ بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله في رحالكم ؟ فوالذي نفسُ محمد بيده لولا الهجرة لكنتُ امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعبًا وسلكت الأنصارُ شعبًا لسلكتُ شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار "

قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا :رضينا برسول الله قسمًا وحظّاً ، ثمّ رسول الله انصرف ﷺ وتفرّقوا " (رواه أحمد).

فكان حظهم ونصيبهم برسول الله أعظم من غيرهم ، فهنيئاً لتلك النفوس بهذا العطاء والاصطفاء .

١٣٨

رجوعُ رسول الله إلى المدينة
واستخلاف عتّاب بن أسيد على مكة

استخلف رسولُ الله ﷺ عتّاب بن أسيد رضي الله عنه على مكة ، وعمرُهُ إحدى وعشرون سنّة (فلله درُ هؤلاء الأبطال ، وهم يبلغون ذرى المجد في مثل هذه الأعمار) وهو أوّل أمير في الإسلام على مكة .

وبعد أن وطدّ الأمن في مكة وما حولها ، قفل راجعاً بأبي هو وأمّي ﷺ إلى المدينة تصحبُه وصحبَه معية الله ، ويحيط بهم فضله ومنّته .

وهاهو بعد عشرين عاماً من دعوته وجهاده وصبره وتضحيته يعود إلى عاصمة الإسلام الأولى (طيبة) منصوراً مأزّراً قد خضعت له المدينتان المقدستان وماحولها لتكون تحت حكم الإسلام ، ولتبدأ عهداً جديداً من الاستضائة بنوره ، وليعيش النّاس في كنف الاسلام ، ويتفيؤن ظلاله ، ويهنؤن بأحكامه الجليلة ، ولتعرف الخلائق عاقبة الصبر والتضحيات ، وأنّ ثمراتها أعذب الثمرات وأزكاها .

١٣٩

سنةُ الوفود وهي السنة التاسعة للهجرة

كان لفتح مكة أثرٌ كبيرٌ في انتشار مكانة الإسلام في جزيرة العرب ، إذ أنّ قريشاً لها كان المكانة العظمى في النفوس ، فلمّا دانت مكة ومن فيها لرسول الله سارع النّاس إلى اعتناق الإسلام .

وبدأت الوفود تفدُ إلى المدينة لتُبايع رسولَ الله ﷺ على الإسلام ، وبلغ عددها أكثر من ستين وفداً وقيل سبعين .

ومن هذه الوفود (وفد بني تميم) وهم من أشراف العرب قال فيهم : " هم أشدُ أمّتي على الدجال " وأسلم في هذه السنة عَديٌ بن حاتم الطائي ، فقد قال له ﷺ : " أسلم تسلم " ثمّ قال له ﷺ :" أمّا إنّي أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام ، تقول : إنّما اتّبعه ضعفةُ الناس ، ومن لا قوة له ...فوالذي نفسي بيده ليُتِمنّ الله هذا الأمر حتى تخرج الظغينة (المرأة) من الحيرة (في العراق) حتى تطوف بالبيت من غير جوار (حماية) أحد ، ولتُفتحنّ كنوز كسرى بن هُرمز ، وليُبذلنّ المالُ حتى لا يقبله أحد " .

فصدق الله نبيَه وعده ، وتحقق كلّ ما أخبر به فصلوات الله وسلامه عليه .

هجْرُ رسول الله ﷺ أزواجه شهراً

مع إجلال زوجات النبي ﷺ له إلا أنّه كان يعتريهنّ من يعتري البشر من الضعف، وما يعتري النساء من الغيرة، فأراد ﷺ تأديبهنّ بالهجر فهجرهنَّ شهراً، وشاع عند الصحابة أن رسولَ الله ﷺ أنّه طلقهنّ، حتى اصاب عمرُ رضي الله عنه حزناً شديداً، وذهب إلى ابنته حفصه فأخبرته بعدم صحة ذلك.

وتعددت الروايات في سبب هجْره ، ولكن قال ابن حجر - رحمه الله - : ويُحتمل أن يكون مجموع هذه الأشياء كان سبباً لا عتزالهنّ، وهذا هو اللائق بمكارم أخلاقه ﷺ، وسعة صدره، وكثرة عفوه.

وبعد تسع وعشرين يوماً دخل ﷺ على عائشة رضي الله فقالت : يارسول الله أنك، إنّك قد أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً فقال لها ﷺ" الشهر تسع وعشورن ليلة "

وذلك لأخذه بأيسر الأمرين عليه الصلاة والسلام.

١٤١

تخيير رسول الله ﷺ زوجاته بينه وبين الدنيا

أنزل الله عليه آية التخيير وهي قوله تعالى :

" يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا " سورة الأحزاب آية ٢٨ .

وقيل أنّ سبب التخيير: هو سؤالهن التوسع في النفقة .

فبدأ بعائشة ، فقال لها :

" يا عائشة إنّي ذاكرٌ لك أمراً ، فلا عليك أن لا تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك " أي : تستشيريهم ، ثم تلى عليها آية التخيير .

فقالت – وهي الرغبة في الآخرة – يارسول الله : ففي أيّ هذا استأمر أبويّ ! فإنّي أُريد الله ورسوله والدار الآخرة ، وهذا يدلّ على كمال عقلها ، وتمام نضوجه ، فمع أنّها كانت صغيرة إلا أنّها آثرت الله ورسولَه والدارَ الآخرة ، ثمّ خيّر رسول الله ﷺ نساءه كلّهُنّ ، فقلن مثل قالت عائشة ، وآثرن الله ورسولَه والدارَ الآخرة ، فرضوان الله عليهنّ جميعاً .

غزوة تبوك

وهي آخر غزواته بأبي هو وأمّي ﷺ ، وكانت في رجب سنة تسع للهجرة .

سببها :ذكر ابنُ سعد في طبقاته :

أنّ رسول الله ﷺ بلغه أنّ هرقل جَمَعَ جُمُوعاً لقتاله فخرج رسولُ الله إليهم .

ويرى ابنُ كثير أنّ السبب في غزوة تبوك : أنه بعدما فرغ من أمر الجزيرة عزم على قتال الروم لأنّهم أقرب النّاس إليه .

استنفار رسول الله ﷺ المسلمين للغزوة تبوك : كان رسول الله ﷺ قلّما يخرج إلى غزوة إلا ورّى بغيرها إلا ماكان من غزوة خيبر وغزوة تبوك ، وصرّح بغزوة تبوك لبُعد الشُقة ، وشدة الزمان ، إذ كان ذلك في شدة الحرّ حين طابت الظلال ، وأينعت الثمار ، وحُبّب إلى النّاس المُقام ، وكذلك كثرة العدو ، فبدأت الآيات تنزل في سورة التوبة لتُعالج هذا الأمر ، فأنزل الله قوله تعالى :

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ " سورة التوبةوغيرها من الآيات .

١٤٣

إنفاق الصحابةُ رضوان الله عليهم في غزوة تبوك

حثّ رسولُ الله ﷺ الصحابةَ على الإنفاق لجيش العسرة ، فتسابقوا إلى التنافس في هذا الباب العظيم وكان أوّلُ من استجاب - كالعادة - أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه ، فجاء بماله كلّه فأنفقه في سبيل الله .

وأنفق عثمان مالاً كثيراً حتى أنّه لّما جاء بنفقته ، جعل رسول الله ﷺ يقلبها بيده وهو يقول :

" ماضرّ ابنُ عفان ماعمِل بعد اليوم " يُردّدها مراراً .

وتتابع الصحابةُ في الإنفاق كلٌ حسب مقدرته ، وكان بعضهم ربما جاء بصاع ونصف صاع ، فصار المنافقون يستهزؤن بهم بأهل الصدقات اليسيرة ، ويتهمون أهل الصدقات الكثيرة بالرياء .

فأنزل الله فيهم قوله تعالى :

" الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "

أمر البكائين وثناء الآيات عليهم

لّما دعا رسولُ الله ﷺ للخروج جاء جماعةُ من فقراء المؤمنين الصادقين وكانوا سبعة يطلبوا من رسول الله ﷺ أن يحملهم معه فليس معهم شيء ، فقال لهم : " لا أجد ما أحملكم عليه " فرجعوا تفيض أعينهم من الدمع حزنا ألا يجدوا مالاً يخرجون به مع رسول الله ﷺ.

ولئن تعجب ، فاعجب من حرصهم رضي الله عنهم - وقد عذرهم الله - وشدة حزنهم وبكاءهم على فوات فرصة الجهاد في سبيل الله ، واعجب - أيضاً - من عجز سول الله ﷺ عن حملهم لترى أنّ الغزوة كانت مليئة بالشدائد .

فأنزل الله فيهم آيات يُثني فيها عليهم ، وتبيّن صدقهم وإخلاصهم ومحبتهم لله ورسوله ، وليكتب الله لهم أجورهم كاملة ، لأنّهم إنّما حبسهم العذر .

قال تعالى :

" لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ "

سورة التوبة آية ٩١ .

١٤٥

صدقة الصحابي عُلبة بن زيد رضي الله عنه

كان عُلْبة بنُ زيد الحارثيُ رضي الله عنه رجلاً من أصحاب النّبي ﷺ فلمّا حضّ على الصّدقة جاء كلُ رجُل منهم بطاقتِه وما عنده ، فقام عُلْبة بنُ زيد يصلي من الليل ما شاء الله أن يُصلي ثمّ بكى ، وقال (اللّهمّ إنك أمرت بالجهاد وليس عندي ما أخرج به ولا ما أتصدّقُ به ، اللّهمّ إنّي أتصدّقُ بعِرْضي على مَنْ نالَه مِن خلْقِك)(أي : أنّه عفا عن كلِّ من وقع في عرضه وآذاه)فلمّا أصبح صلى مع رسول الله ﷺ، فقال ﷺ :

" أين المتصدّق بعِرْضه البارحة ؟ " فلم يقم أحدٌ ، ثم قال ﷺ " أين المتصدّق ، فليقم " فقام عُلْبَةُ ، فأخبره فقالَ له ﷺ :

" أبشِرْ فوالذي نفسُ محمّد بيدِه لقد كُتبت في الزّكاة المتقبّلَة "

فيالعظيم كرم الله وإحسانه لعباده .

وانظر لهذا الفقه لصحابة النبي ﷺ ، وكيف أنّهم يحرصون على الخير بطرق عجيبة ومتنوّعة فرضي الله عنهم أجمعين .

١٤٦

تخلّف المنافقين ونزولُ الآيات تهتك أستارهم

لّما أمرَ رسولُ الله ﷺ النّاس بالجَهاز ، ودعاهم إلى النفير ، أخذ المنافقون - كعادتهم في كلّ زمان ومكان - في تثبيط هِمم النّاس ، وصارت الآيات تنزل في فضح أحوالهم ، فتعذروا ببعد السفر ، فأنزل الله فيهم :

" لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ "

وقال بعضُهم لبعض لا تنفرّوا في الحرّ ، فأنزل الله فيهم :

" وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ "

ومنهم من أعتذر - كذباً - بفتنة النساء فأنزل الله فيه :

" وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ "

ونزلت الآيات في سورة التوبة تصف حالهم ونفاقهم ، ولم تزلّ الآيات - كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما - تقول : " ومنهم " " ومنهم " حتى كاد الله يسميهم بأسمائهم .

خروج رسول الله إلى تبوك وبعض الأحداث المهمّة

تجهّز رسول الله ﷺ لهذه الغزوة بجيش عظيم وكان عدده ثلاثين ألفاً في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، وعدواً كثيراً.

سار ﷺ وأصحابَه تكلأهم رعاية الله وتحفظهم معيته.

وتخلّف - كعادتهم - المنافقون برئيسهم عبدالله بن أبي بن سلول، فأنزل الله آيات تُتلى إلى يوم القيامة تفضح صنيعهم هذا.

ومرّ رسول الله ﷺ بالحِجر - وهي ديار ثمود - فلمّا وصلها أسرع براحلته، وقال ﷺ:

" لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم " رواه البخاري ومسلم.

وأمر الصحابَة أن لا يشربوا من بئرها، وطرح العجين الذي اعتجنوا به من بئرها.

١٤٨

بعض الشدائد التي لقيها المسلمون في هذه الغزوة ومعجزات لنبينا ﷺ

لقي المسلمون شدائد عدة في هذه الغزوة ، منها :أنّ النّاس أصبحوا بلا ماء ، وأصابهم عطش شديد حتى حملهم ذلك على عزمهم على نحر إبلهم ليشقوا أكراشها ويشربوا ماءها ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : يارسول الله قد عوّدك الله في الدعاء خيراً ، فادع لنا ، فقال ﷺ :

" أتُحبُ ذلك ؟ " قال : نعم ، قال : فرفع يديه فلم يرجعهما حتى أظلّت سحابة فسكبت ، فملأوا ما معهم ، قال الراوي : ثمّ ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر . وأصاب النّاس مجاعة شديدة حتى استأذنوا رسول الله ﷺ في نحو نواضحهم (أي : الإبل التي يُستقى عليها)

فأذن لهم ، فقال عمر رضي الله عنه : إن فعلت قل الظهر (أي : نقصت الأبل التي يُحمل عليها وتُركب) ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ثم ادع الله لهم عليها بالبركة ، فجمعوا فضل طعامهم ، فدعا رسولُ الله ﷺ عليه بالبركة فامتلأت الأوعية وأكلوا وشبِعوا وفضلت فضلة ، فقال ﷺ:" أشهد أن لا إله إلا الله وأنّي رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاك ، فيُحجب عن الجنّة " أخرجه مسلم .

وصولُ المسلمين تبوك
وأخذ المنافقين ماءها

لما وصل المسلمون تبوك ، وجدوا عينها قليلة الماء ، وكان رسول الله ﷺ قد قال لهم :

" أنكم ستأتون غدا إن شاء الله عين تبوك ..فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي " فسبقه إليها رجلان ، فاستقيا مافيها ، فغضب منهما غضبا شديدا ، ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلا قليلا ، حتى اجتمع في شيء ، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه ثم أعاده فيه ، فجرت العين بماء كثير ، فاستقى الناس ، ثم قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه :

" يوشك يامعاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جنانا " وحدث ما تنبئ به فهاهي تبوك قد ملئت مياها وجنانا .

بقي في تبوك عشرين يوما لم يلق كيدا ، ولم يواجه عدوا ، وكان يرسل السرايا على القبائل على أطراف الشام .

١٥٠

وفاة ذو البجادين رضي الله عنه

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : قمت من جوف الليل وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فرأيت شعلة من النار في ناحية العسكر قال : فاتّبعتها أنظر إليها ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وإذا عبد الله ذو البجادين المزني قد مات ، وإذا هم قد حفروا له ، ورسول الله ﷺ في حفرته وأبو بكر وعمر يدليانه إليه ، وهو يقول : أدليا إلي أخاكما ، فدلياه إليه ، فلما هيأه لشقه قال :

" اللهم إني أمسيت راضيا عنه ، فارض عنه "

قال ابنُ مسعود رضي الله عنه ، فقلتُ : يا ليتني كنت صاحب الحفرة .

وكان ذو البجادين رجلاً عابداً كثير الذكر والتلاوة ، وأثنى عليه رسول الله ، فقال ﷺ : " أنّه أوّاه " . رواه أحمد .

قدوم رسول الله ﷺ المدينة

عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلقى كيداً من عدوّه، ولكن كان لهذه الغزوة الأثر الكبير في رفع شأن المسلمين، وتقوية شوكتهم في الجزيرة وخارجها.

ولّما أشرف ﷺ على المدينة، قال:

" هذه طيبة أو طابة " فلمّا رأى جبل أحد، قال: " هذا جبلُ أحد يُحبنا ونُحبه "

فضلُ النية الصالحة:

أخبر ﷺ أصحابه رضي الله عنهم أنّ بالمدينة رجالاً أخذوا أجر الغزو كله، حبسهم العذر (فانظر لأثر النية الصالحة مع بذل المستطاع)وتلقى أهلُ المدينة الجيشَ عند ثنية الوداع فجعلوا ينشدون:

طلع البدر علينا من ثنيّات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

ويتبين بهذا أنّ هذه الأبيات قيلت لرسول الله ﷺ على الصحيح عند قدومه من تبوك، لا كما هو منتشر أنّها قيلت عند قدومه مهاجراً من مكة.

١٥٢

شأن مسجد الضِّرار الذي بناه المنافقون

مع مايرى المنافقون من نصرة الله لرسوله ﷺ ودخول النّاس في دين الله افواجاً ، إلا أنّ الكفر الذي انغرس في نفوسهم كان مانعاً لهم من اتبّاع الحق ، بل وصل الأمر إلى أن يبنوا مسجداً في ظاهره الصلاح ، وفي باطنه الكفر البواح ، فطلبوا من الرسول ﷺ الصلاة فيه - وكان ذلك قبل سفره - ليُثبتوا عليه الصبغة الشرعية ، فاعتذر منهم وأنّه على جناح سفر ، فلمّا رجع من غزوة تبوك أنزل الله عليه آيات تجلّي له حقيقة هذا البناء ، وإنّه إنّما بُني للإضرار بالمسلمين ، قال تعالى : " وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ " التوبة ٧٠١ .

فخيّب الله سعيهم فأرسل رسول الله ﷺ مالكَ بن الدُخشُم ومعن بن عديّ وقال لهما : " انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهلُهُ ، فاهدماه وحرّقاه "

فخرجا سريعين حتى أتياه فأشعلا فيه النيران وهدماه ، وتخلّص المسلمون من شرّه .

١٥٣

مقاطعة المُتخلّفين

لّما دنا رسولُ الله ﷺ من المدينة ، قال لأصحابه :

" من لقي منكم أحداً من المُخلّفين فلا يُكلمنّه ، ولا يُجالسنّه "

فأعرض عنهم رسولُ الله ﷺ والمؤمنون حتى إنّ الرجل ليُعرض عن أبيه وعن أخيه ، وحتى أنّ المرأة لتُعرض عن زوجها (وهذا يدلّ على كمال المجتمع وعظيم استجابتهم لأمر رسول الله) قال ابن عباس : كان عشرة رهط تخلّفوا عن رسول الله في غزوة تبوك ، فلمّا حضر رجوعه أوثق سبعةٌ منهم أنفسهم بسواري المسجد ، فلمّا مرّ بهم رسول الله ﷺ قال :

" من هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسواري ؟ "قالوا : هذا أبو لُبابة وأصحابُه الذين تخلّفوا وحلفوا أن لا يطلقهم أحد حتى تُطلقهم ، فقال ﷺ :

" وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يُطلقهم ...

"فأنزل الله : " وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " سورة التوبة آية ٠٢١ .

فأرسل إليهم وأطلقهم ، وأعذرهم .

مع خبر الثلاثة الذين خُلِّفوا (١)

تقدّم أن الصادقين الذين تخلّفوا عن هذه الغزوة عشرة أشخاص ، وأنّ سبعة منهم قد ربطوا أنفسهم وتاب الله عليهم ، أمّا الثلاثة الآخرون فهم الذين أرجأ الله توبتهم لحكم كثيرة جداً .

ولصدق هؤلاء الثلاثة امتُحِنوا امتحاناً عظيماً .

فإنّه لمّا قفل رسول الله ﷺ راجعاً من تبوك جاءه المخلّفون يعتذرون إليه بالكذب ، فيقبل منهم ، وجاء كعب بن مالك رضي الله عنه - وهو أحد الثلاثة الذين نزلت فيهم الآيات - قال له ﷺ :

" ما خلّفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهراً ؟ " يعني اشتريت بعيراً لتركب عليه ؟

قال : فقلت : يارسول الله : والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا (يعني قدرة على الكلام) ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكنّ الله أن يُسخطك عليّ ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه (يعني تغضب عليّ) إني لأرجو فيه عقبى الله ؛ والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قط أقوى ، ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، فقال ﷺ :

" أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي الله فيك "

١٥٥

مع خبر الثلاثة الذين خُلِّفوا (2)

قال كعبٌ : فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني ، فقالوا لي : والله ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هذا لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلّفون ، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله لك ، قال فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي (فانظر لأثر من حولك) قال ، ثمّ قلت لهم : هل لقي هذا معي من أحد قالوا : نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك ، قال قلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيعة ، وهلال بن أمية رضي الله عنهما .

قال : فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة ، قال فمضيت حين ذكروهما لي .

قلت : فانظر لأثر التأسي بفِعال الصالحين وأقوالهم .

ثم نهى رسول الله عن كلامهم حتى تغيّرت عليهم الأرض ، وهجرهم أقرب النّاس .

(لبثوا على ذلك خمسين ليلة) وما أشدها من ليال !

مع خبر الثلاثة الذين خُلِّفوا (3)

قال كعب رضي الله عنه : حتى إذا طال ذلك علي من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي ، فسلمت عليه ، فوالله ما رد علي السلام ، فقلت له يا أبا قتادة : أنشدك بالله هل تعلمن أني أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت ، فعدت فناشدته ، فسكت فعدت فناشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار ، فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك ، قال : فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاءني ، فدفع إلي كتابا من ملك غسان ، وكنت كاتبا فقرأته ، فإذا فيه أما بعد : فإنه قد بلغنا أن صاحبك (يعنون رسول الله ﷺ) قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك) فانظر لفتنة الكافرين ، ومحاولة إغواء المؤمنين ، حتى في ذلك الزمان (قال : فقلت حين قرأتها وهذه أيضا من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرتها بها (أحرقتها) .

وهذا هو التصرف الصحيح حتى لا يعود إليها مرة أخرى ، ويقطع الشر من أصله .

مع خبر الثلاثة الذين خُلِّفوا (4)

قال كعب رضي الله عنه : ثم صليت الصبح ، وقد ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، وضاقت علي نفسي ، إذ سمعت صوت صارخ يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ، أبشر ، قال : فخررت ساجدا ، وعرفت أن قد جاء الفرج .

وآذن رسول الله ﷺ (أعلم) الناس بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني ، نزعت ثوبي فكسوتهما إياه بشارة ، والله ما أملك يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، ثم انطلقت أتيمم رسول الله ﷺ ، وتلقاني الناس يبشرونني بالتوبة ، يقولون : ليهنك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد ، ورسول الله جالس حوله الناس ، فقام إلي طلحة بن عبيد الله ، فحياني وهنأني ، ووالله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ، قال : فكان كعب بن مالك لا ينساها لطلحة .

قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ ، قال لي ووجهه يبرق من السرور : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ، وكان رسول الله إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر ، قال : وكنا نعرف ذلك منه .

وأنزل الله : " وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم " سورة التوبة آية ٨١١

١٥٨

غزوة تبوك ونهاية غزوات رسول الله ﷺ ، والحكمة من الجهاد

كانت غزوة تبوك هي آخر الغزوات التي غزاها ﷺ، وقد بلغ عدد غزواته (٢٧ غزوة) قاتل في تسع غزوات منها ، وهي : بدر ، وأحد ، والخندق ، وقريظة ، وبني المصطلق ، وخيبر ، والفتح ، وحنين ، والطائف .

وبلغت بعوثه وسراياه ثمانية وثلاثين بعثا وسرية .

وكان الهدف الأعظم من هذه الغزوات :

هو نشر الإسلام وتثبيت دعائمه ، وتطهير الأرض من جبابرة السوء الذين يصدون عن سبيل الله .

فجهاده وقتاله ﷺ إنما كان المقصد منه هو فسح الطريق للدخول في الإسلام ، ولذا لم يقتل في الغزاوات من الفريقين إلا (١٠١٨ رجلا فقط) لنوقن أن الهدف ليس هو القتل بذاته .

ولذا ورث أصحابه رضوان الله عليهم هذا النهج في معاركهم بعده ، فنشروا الإسلام بالرحمة ، ولك أن تتخيل لو لم يكن هناك جهاد فما هو حال الناس خارج جزيرة العرب !؟ ستبقى هذه الأجيال على الكفر ، ويكونون حطبا لجهنم ، ولذا فإن المقصد من الجهاد هو : رحمة الخلق بإدخالهم الإسلام ، فهو دين الرحمة للبشرية جميعا .

١٥٩

سنة الوفود

سمّى أهلُ السير السنة التاسعة من الهجرة ب (سنة الوفود) لتتابع الوفد على رسول الله وذلك بعد عودته من تبوك ، وظهور دين الله ، وقوة المسلمين .

وزادت هذه الوفود على سبعين وفداً غير التي وفدت عليه بعد فتح مكة .

وكانت هذه الوفود إذا وصلت المدينة ، ضرب لهم رسولُ الله ﷺ منـزلاً لرواحلهم قُرب مسجده الشريف حتى يرون شعائر الإسلام .

ومنها : وفد ثقيف .

وكان عروة بن مسعود رضي الله عنه - وهو سيدٌ مُطاعٌ فيهم - قد أسلم بعد غزوة الطائف ، وأتى رسولَ الله ﷺ يستأذنه في دعوة قومه ، فقال له :

" إنّي أخاف أن يقتلوك " لعلمه بشدة ثقيف ، فقال : يارسول الله إنّي أحبّ إليهم من أبكارهم (أولادهم البكر) فلمّا أتى قومَه ودعاهم للإسلام رموه بالنبال حتى قتلوه ، فلمّا بلغ رسول الله ﷺ مقتله ، قال :

" مثل عُروة مثلُ صاحب ياسين ، دعا قومَه إلى الله تعالى ، فقتلوه " فكانت شهادة له منه ﷺ بنيل هذا الشرف المنيف .

مجيء وفد ثقيف ودخولهم في الإسلام

أقامت قبيلةُ ثقيف بعد قتل عُروة بن مسعود رضي الله عنه أشهراً ، ثم أتت المدينة مسلِمة لله لتبايع النبي ﷺ وكان هذا ثمرة دعوته يوم قال :

" اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم "

ولّما أتوا يُبايعون رسولَ الله ﷺ سألوه (لجهلهم أن يكتب لهم كتاباً يأذن لهم فيه بالزنى والربا وشرب الخمر وأن يعفيهم من الصلاة) فأبى رسولُ الله ﷺ كل ذلك ، وقال :

" لا خير في دين لا ركوع فيه "

ثمّ جعل عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أميراً عليهم ، وكان أصغرهم ، لِما رأى من حرصه على الإسلام ، وقراءة القرآن وتعلّم الدين ، وأمره بتخفيف الصلاة على النّاس .

ثمّ أرسل ﷺ إليهم خالد بن الوليد رضي الله عنه لهدم اللات ، وخرجت ثقيف لتُشاهد هدمه ، فتقدّم المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، فهدمها مع الرجال حجراً حجراً حتى بلغوا أساسها فأخرجوا تُرابها ، وانتزعوا حُليّها فبُهتت ثقيف ، وانتهى أمر هذا الصنم وظهر بطلانه .

١٦١

قدوم وفد بني حنيفه وفيهم مسيلمة الكذّاب

وكانوا يسكنون اليمامة (شرق الحجاز) أتوا رسولَ الله ﷺ فأسلموا جميعهم إلا مسيلمة الكذّاب ، فجعل يقول : إن جعل لي محمدٌ الأمر من بعده تبعته (فمنعه الكِبر والفخر والخيلاء) فأقبل إليه النبي ﷺ ، وفي يد رسول الله قطعة جريد ، فقال له :

" لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن تعدو أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنّك الله ، وإنّي لأراك الذي أُريتُ فيه ما رأيت " رواه البخاري ومسلم .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : فسألت أبا هريرة رضي الله عنه عن قول النبي ﷺ " إنك أرى الذي أريت فيك ما أريت " فقال : أن النبي ﷺ قال :

" بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب ، فأهمني شأنهما ، فأوحي إلي في المنام : أن انفخهما ، فنفختهما ، فطارا ، فأولتهما كذابَيْن يخرجان من بعدي ، فكان أحدهما العَنْسي صاحب صنعاء ، والآخر مسيلمة صاحب اليمامة "

١٦٢

قُدوم وفد نجران

كان النبي ﷺ قد أرسل إلى نصارى نجران يدعوهم إلى الإسلام ، فبعثوا إليه بوفد من أشرافهم ، فلمّا التقوا به دعاهم للإسلام ، فأبوا وامتنعوا ، ودار نقاشاً طويلاً بين أولئك النصارى وبين رسول الله ﷺ ونزلت الكثير من الآيات التي تجيب عن تساؤلاتهم ، ثمّ طلبوا المباهلة (أي الملاعنة) فوافق رسول الله ﷺ ، ولكنّهم امتنعوا عن ذلك ليقينهم بصدقه ونزول العذاب عليهم .

ثم تصالحوا مع النبي على دفع الخَرَاج ، وطلبوا أن يبعث معهم رجلاً أميناً لقبضِ المال منهم ، فقال لهم ﷺ :

" لأبعثنّ معكم رجلاً أميناً حقُ أمين " فاستشرف لها الصحابة رضي الله عنهم - رغبة في هذا الوصف الشريف - فأرسل معهم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ، وقال ﷺ : " هذا أمينُ هذه الامّة " ثم ما لبث الإسلام أن انتشر بينهم .

١٦٣

هلاك رأسُ المنافقين
عبدُالله بن أبيّ بن سلول

تميّز المجتمع المدني بوجود صنف من الكافرين (وهم المنافقون) وهم : من يظهر الإيمان ويُبطن الكفر .

وكان رأسهم هو : عبدُالله بن أُبيّ بن سلول وقد كان مهيأ لزعامة الأوس والخزرج قبل مقدمه ﷺ ، وكان سيّداً معظّماً عندهم لا يختلف عليه في شرفه اثنان، حتى جاء الإسلامُ وكان قومه قد نظموا له الخرز ليملّكوه عليهم ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام حقد على رسول الله ﷺ ، ودخل في الإسلام كارها مصراً على نفاقه .

وكانت له مواقف سيئة مع رسول الله ﷺ (منها انسحابه بالمنافقين في غزوة أُحد ، وجمعه وتقويته للمنافقين واليهود معه ، وتأليب الأنصار على المسلمين وغيرها من المواقف السيئة) ولكنّ أعماله كلها قد باءت بالفشل حتى مات على كفره ، ومضى بأسوأ ذكر ، وكان مآله الدرك الأسفل من النّار ، ومع هذا الكفر والشناعة إلا أنّ ولده الصحابي الجليل عبدالله طلب من رسول الله يوم وفاته الصلاة عليه، فاستجاب ﷺ - إكراماً له - حتى جاء النهي عن الصلاة عليهم .

١٦٤

حج أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه بالنّاس

بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه عام تسعة للهجرة أميرا على الحج ليقيم للمسلمين حجهم ، وإنما تأخر رسول الله ﷺ هذا العام عن الحج كراهية الاختلاط بأهل الشرك الذين كانوا يتنسكون بغير التوحيد ، وربما طافوا بالبيت عراة .

فلما خرج أبو بكر رضي الله عنه من المدينة ، نزل الوحي على رسول الله بسورة براءة ، فبعث بها عليا رضي الله عنه ، وأمره أن ينادي بالناس بأمور :

- لا يحجن بعد هذا العام مشرك .
- ولا يطوف بالبيت عريان .
- ولا يدخل الجنة إلا مؤمن .
- من كان له عهد فعهده إلى مدته ، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر .

فكانت هذه الحجة بمثابة التوطئة لحجة النبي ﷺ التي لم يحج معه مشرك .

١٦٥

بعث معاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن

وكانا عالمين جليلين من علماء الصحابة رضوان الله عليهم جميعا .

بعثهما ﷺ ليعلما النّاس ، وليحكما بينهما ، وهكذا نرى الإسلام قد وصل أقصى الجزيرة من الجنوب ودانت له تلك الجهات .

وقد أوصاهما رسولُ الله ﷺ بوصايا عدة ، منها قوله :

" يسرا ولا تعسرا ، وبشّرا ولا تُنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا " وهي منهج للدعاة في التعاون بينهما .

ومّما أوصى به رسولُ الله ﷺ معاذاً رضي الله عنه ، حسن الخلق ، وهذا يبيّن جلالة منزلته، قال : " يامعاذ أحسن خلقك "وخرج رسول الله ﷺ لكمال خلقه وتواضعه يودّع معاذاً ، ومعاذٌ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته ، فقال له مودّعا : " يا معاذُ إنّك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا .. "

فبكى معاذٌ ، ثمّ التفت رسول الله ﷺ نحو المدينة فقال :

" إنّ أولى النّاس بي المتقون ، مَنْ كانوا وحيث كانوا "

أخرجه أحمد .

١٦٦

حجة الوداع

- سبب التسمية ، ووقت الخروج -

وسُمّيت هذه الحجة المباركة حجة الوداع ، لأنّ الرسول ﷺ ودع فيها النّاس .

وقت خروج النبي ﷺ :

خرج من المدينة يوم السبت لخمس ليال بقين من ذي القَعْدة ، خرج معه أكثر من مئة ألف حاجّ ، وكان نساؤُهُ كلُهُنّ معه .

صلى ﷺ الظهر بالمدينة ثمّ انطلق إلى ذي الحليفة ، فصلى فيها العصر ركعتين ثمّ بات حتى أصبح ، فلمّا أصبح قال لأصحابه : " أتاني الليلة آت من ربي ، فقال : صلّ في هذا الوادي المبارك ، وقل : عُمرة في حجة " أخرجه البخاري .

ثمّ أهلّ (رفع صوتَه بالتلبية) بالحج والعمرة ، وقال :

" اللهم حجة لا رياء فيها ولا سُمعة "

وكان راكباً على رحل رثٍّ (بالي قديم) وقطيفة لا تساوي أربعة دراهم ، فصلوات الله عليه قد بلغ الذروة في التواضع والزهد في الدنيا ومتاعها الزائل .

بعض الأحداث في طريق حجة الوداع

حصلت بعض الأحداث في سيره ﷺ إلى مكة، منها :

* ولادة محمد بن أبي بكر رضي الله عنه، فجاء أبو بكر النبي ﷺ فأخبره، فأمره أن تغتسل وتهلّ بالحج وتصنع ما يصنع الحاج إلا أنّها لا تطوف بالبيت، وفي هذا دلالة أنّ الإحرام يصح من الحائض والنفساء وتصنع كلّ شيء في الحج غير أنّها لا تطوف حتى تطهر.

* ورأى رسولُ الله ﷺ رجلاً يمشي فسأل عنه فقيل : نذر أن يحجّ ماشياً، فقال :

" إنّ الله غنيٌّ عن مشي هذا، فليركب "

* ورفعت امرأةٌ صبياً معها وقالت يارسول الله : ألهذا حج ؟

فقال لها ﷺ : " نعم ولك أجر "

ففيه : صحة الحجّ من الصبي.

وصْفُ الرسول لتلبية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

وفي أثناء مسيره ﷺ مرّ على بعض الأودية ، فذكر للصحابة تلبية الأنبياء في الحجّ إلى بيت الله الحرام ، وهذا يدلّ على أنّ الحجّ سُنّةٌ ماضية للأنبياء قبله عليهم السلام .

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

لما مرّ رسول الله ﷺ بوادي عُسفان حين حج ، قال : " يا أبا بكر ، أي واد هذا ؟ " قال : وادي عُسفان ، قال : " لقد مر به هودٌ وصالحٌ على بَكَرات (إبل) حمر ، خطمها الليف ، أزرهم العباء ، وأرديتهم النِّمار ، يحجون البيت العتيق " رواه أحمد .

عن ابن عبّاس رضي اللّه عنهما ؛ أنّ رسول اللّه ﷺ مَرّ بوادي الأزرق فقال : أيّ وادٍ هذا ؟ فقالوا : هذا وادي الأزرق ، قال كأنّي أنظر إلى موسى عليه السّلام هابطا من الثنية وله جؤار إلى اللّه بالتّلبية (أي : رافع الصوتُ بالتلبية) ثمّ أتَى على ثنية هرشى ، فقال : أيُّ ثنية هذه ؟ قالوا : ثنية هرشى ، قال كأنّي أنظُر إلى يونس بن مَتّى عليه السّلام على ناقة حمراء جعدة ، عليه جبّة من صوف ، خطام ناقته خلبة (ليف) وهو يُلبّي " رواه مسلم .

وصول رسولُ الله مكة ﷺ وطوافه وسعيه

دخل ﷺ مكة لأربع خلون من ذي الحجة وبات ليلة الأحد ، ثمّ لّما أصبح اغتسل وصلى الفجر ، ثمّ نهض إلى مكة وأتى المسجد الحرام ضُحى ، فبدأ بالحجر الأسود فاستلمه وقبّله وفاضت عيناه بالبكاء ، ووضع شفتيه عليه ، وبكى طويلاً ثم التفت رسولُ الله ﷺ فإذا هو بعمر بن الخطاب رضي الله عنه يبكي ، فقال :

" ياعُمرُ ، هاهنا تُسكبُ العبرات "

فلمّا فرّغ من طوافه تقدّم خلف مقام إبراهيم عليه ، فقرأ قولَه تعالى :

" وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى " وصلى ركعتين ، قرأ بالأولى بسورة " قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ " والثانية ب " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ "

ثمّ خرج إلى الصفا ، فلمّا دنا من الصفا قرأ قولَه تعالى :

" إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ " ثم قال " ابدأ بما بدء الله به " .

أي يبدأ السعي بالصفا ، فسعى سبعة أشواط ، بدأ بالصفا وانتهى بالمروة .

خروج النبي ﷺ إلى مِنى ثم إلى عرفه وخطبته فيها

فلمّا كان يوم الثامن وهو يوم التـروية خرج ﷺ إلى مِنى وصلى فيها الظهر والعصر والمغرب والعشاء قصراً يقصر الرباعية ، وبات بها وكانت ليلة الجمعة ، ثم صلى صبح يوم الجمعة ، ثم مكث قليلاً وتوجه إلى عرفة وكان أصحابُه منهم الملبي ومنهم المكبّر ، وهو يسمع ذلك ، ولا يُنكر عليهم ، فلمّا وصل عرفة وجد القُبّة قد ضُربت له بنَمرة (وهي موضع المسجد اليوم) حتى إذا زالت الشمس خطب في النّاس خطبة جامعة قرر فيها قواعد الإسلام وهدم قواعد الجاهلية فمّما جاء فيها ، قوله ﷺ :

" أيّها النّاسُ ، اسمعوا قولي ، فإنّي لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا ..أيّها النّاس ، إن دمائكم وأموالكم حرامٌ عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا . ألا إنّ كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة .. وقد تركتُ فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله ، وأنتم تُسألون عني ، فما أنتم قائلون ؟ "

قالوا : نشهد أنّك بلّغت وأديت ونصحت ، فقال بأصبعه السّبّابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى النّاس : " اللهم فاشهد ، اللهم فاشهد ، اللهم فاشهد "

وقوفه ﷺ في عرفات وسكب العبرات

وبعد صلاته بنمرة ، ركب ﷺ ناقته وأتى الموقف ، واستقبل القبلة رافعاً يديه إلى غروب الشمس ، داعياً مبتهلاً متضرعاً ، مفتقراً لربه شاكراً لانعمه وفضله ، فهاهي الجموع المسلمة بين يديه ، موحدة ربها لا شرك ولا وثنية ولا ضلال .

(وبقي منشغلاً بالدعوات هذه الساعات الطوال ، مبشراً للأمة بفضل يوم عرفة ، وأنّه خير الأيام ، ودعاءه أسمع الدعاء ، والأقرب للإجابة ، مبيّناً فضل كلمة التوحيد ، وأنّها خير ماقيل في هذا اليوم العظيم ، وبشّر رسولُ الله ﷺ أمّته بأنّ يوم عرفة أكثر يوم يُعتقُ الله فيه عبداً من النّار ، وأنّ أهله يخرجون منه مغفوراً لهم قد تحمّل الله عنهم التبعات)

فلا إله إلا الله ، كم في هذا الشريعة من خيرات ، وكم أجرى الله على يدي نبيه ﷺ من بركات .

ونزل في هذا اليوم الآية العظيمة :

" الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا.. "

فكان يوم الفضل والتمام .

الإفاضة إلى مزدلفة والمبيت فيها

فلمّا غربت الشمس وتحقق غروبها أفاض رسول الله ﷺ من عرفات إلى مزدلفة وهو يلبي وعليه السكينة وقد أردف خلفه أسامة بن زيد رضي الله عنهما ويوصي النّاس بالسكينة.

فلمّا كان بالطريق عند الشّعب نزل فبال وتوضأ وضوءًا خفيفاً، فقال له أسامة: الصلاة يارسول الله، فقال: " الصلاة أمامك ".

ثمّ سار حتى أتى المزدلفة، وهي المشعر الحرام - مكان المسجد اليوم - فأسبغ الوضوء ثم أمر بلال بالأذان، فأذن فصلى بالنّاس المغرب قبل أن يحط النّاس رحالهم، فلمّا حطوا رحالهم أمر بأقامة صلاة العشاء فصلى العشاء ركعتين ثم اضطجع حتى طلع الفجر.

ثم صلى الفجر وجلس يذكر الله إلى قُبيل طلوع الشمس ثم خرج إلى مِنى.

وكان قد أذِن للضعفة من أهله بالتعجّل إلى منى من الليل.

١٧٣

التحرك إلى مِنى في اليوم العاشر وهو يوم الحج الأكبر

صلى ﷺ الفجر في أوّل وقته ثم يجلس يذكر ربه وقبيل طلوع الشمس تحرك إلى الجمرات ، والتقط وهو في سيره الجمرات وهي سبع حصيات من حصى الخذف .

ولّما وصل وادي محسّر حرّك واسرع بناقته قليلاً ، لأنّه الموضع الذي نزل فيه العذاب على أصحاب الفيل ، وكان يُلبي في مسيره ولم يقطع التلبية حتى رمى جمرة العقبة .

فلمّا أتى جمرة العقبة - وهي الجمرة الكبرى - رماها بسبع حصيات ، يُكبّرِ مع كلّ حصاة ، وهو يقول :" لتأخذوا عنّي مناسككم ، فإنّي لا أدري لعلي لَا أحج بعد حجتي هذه "

ثمّ خطب النّاس - وسيأتي تفاصيلها - ثمّ اتجه نحو المَنحَر فنحر ثلاثاً وستين بدنه (ناقه) بيده الشريفة ، وكانت هذه البُدنُ يقربن منه ، ثمّ أمر علياً يذبح باقي البدن وهي سبعٌ وثلاثون بدنة تمام المئة .

خطبته يوم النحر

يوم النحر هو يوم الحج الأكبر إذ أكثر أعمال الحج فيه ، خطب فيه النبي ﷺ خطبة عظيمة جاء فيها :

" إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر .."

وممّا جاء في خطبته : " ألا فلا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضُكم رقاب بعض .."

" ألا وإني فرطكم على الحوض ، وأكاثر بكم الأمم ، فلا تسودوا وجهي ، ألا وإني مستنقذِ أناسًا ، ومستنقَذ مني أناس ، فأقول : يا رب أصحابي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك "

وفتح الله لخطبته أسماع النّاس حتى سمعوا ماكان يقول وهم في منازلهم ، وهذا من المعجزات له .

حلْقه رأسه ، وطوافه يوم النحر

لّما فرّغ رسولُ الله ﷺ من نحر هديه دعا الحلّاق ، فحلق رأسه ، وقال للحلّاق : " خذ " وأشار إلى جنابه الأيمن ، ثمّ الأيسر ، ثمّ جعل يعطي شعره النّاس .

يقول أنس رضي الله عنه : لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ والحلّاق يحلقه ، وأطاف به أصحابُه ، فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل .

ثمّ اغتسل ولبس أحسن ثيابه وتطيّب ، فطاف بالبيت الإفاضة سبعة أشواط .

وكل هذا من تعظيم شعائر الله تعالى .

ثمّ أتى زمزمَ وبنو عبدالمطلب يسقون النّاسَ ، فقال :

" انزعوا بني عبدالمطلب ، فلولا أن يغلبكم النّاس على سقياتكم لنزغت معكم "

وفي رواية: " اعملوا فإنكم على عمل صالح " ثمّ قال :

" لولا أن تُغلبوا لنزلت حتى اضع الحبل على هذه " وأشار إلى عاتقه ،

فصلوات ربي وسلامه عليه .

بعث أسامة بن زيد إلى البلقاء من أرض فلسطين

وهو آخر بعث بعثه النبي ﷺ وكان قبل موته بيومين ، وكان عُمر أسامة رضي الله عنه يومئذ ثمانية عشر عاماً ، وكان في الجيش كبار الصحابة رضوان الله عليهم ، وتكلّم النّاس في أمارته .

فقال النبي ﷺ :

" إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبله، وايم الله إن كان لخليقاً للإمرة ، وإن كان لمن أحب الناس إلّي ، وإنّ هذا لمن أحب الناس إلّي بعده "

رواه البخاري .

خرج الجيش حتى بلغ الجُرف ، فوصلهم نبأ مرض رسول الله ﷺ فتوقف الجيش ينتظرون ما يؤول إليه مرضه .

حتى كان يوم الأحد قبل وفاته بيوم اشتد به الوجع ، فرجع المدينة فوجدوا أنّ المرض بالنبي قد بلغ مبلغه .

علامات دنو أجل النبي ﷺ (١)

كانت هناك عدة إشارات وعلامات تدل على دنو أجل الرسول ﷺ ، منها :

* نزول سورة النصر ، والتي قال عنها تُرجمان القرآن ابن عباس رضي عنهما : أنّها إعلام من الله بدنو أجل نبيه ﷺ .

* مدارسة جبريل القرآن له مرتين في عام وفاته ، إذ كان يُعارضه قبل ذاك كل عام مرّة .

* مضاعفة اعتكافه في آخر رمضان صامه حيث اعتكف عشرين ليلة بدل عشر ليال .

* اجتهاده في العبادة في العام الذي قُبض فيه .

* تلميحه باقتراب أجلّه كما جاء في خطبه في الحجّ ، بقوله " لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا " وكذلك قوله لمعاذ " " يا معاذُ إنّك عسَى أن لا تلقاني بعد عامي هذا .. "

علامات دنو أجل النبي ﷺ (2)

* دعاءه واستغفاره لشهداء أحد ، فقد خرج لشهداء أحد بعد عودته من حجه وصلاته عليهم ، فخطب وقال ﷺ :

" إني بين أيديكم فرط (أي متقدمكم)وأنا عليكم شهيد ، وإن موعدكم الحوض .."

* استغفاره لأهل البقيع ، فعن أبي مويهبة ، مولى رسول الله ﷺ، قال : طرقني النبي ﷺ ذات ليلة فقال : " يا أبو مويهبة انطلق ، فإني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع " ، فانطلقت أو قال : فانطلقنا ، فلما توسط البقيع استغفر لأهل المقابر، ثم قال : " ليهن لكم ما أصبحتم فيه لو تدرون مما نجاكم الله منه ؛ أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى "

ابتِداء شكوى رسولُ الله ﷺ

ابتَدأ رسولُ الله ﷺ بشكواه الذي قُبض فيه في أواخر شهر صفر ، وكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يوماً .

وكان أوّل مابُدئ به من وجعه الصُداع الشديد في رأسه ، فدخل على عائشة رضي الله عنها وهي تقول : وارأساه ، فقال ﷺ : " بل أنا وارأساه ياعائشة " .

ولّما وصل بيت زوجته ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها اشتدّ به وجعُهُ ، فاستأذن أن يُمرّض في بيت عائشة رضي الله عنها فأذِنّ له ، فخرج بين عمّه العباس وعلي بن أبي طالب رضي عنهما .

وفي رِواية جيئ به محمولاً في كساء ، فدخل على عائشة رضي الله عنها ، وبعث إلى النساء فقال :

" إنّي قد اشتكيت وإنّي لا أستطيع أن ادور بينكنّ ، فائذَنّ لي فلأكن عند عائشة "

(فانظر لكمال خلقه وحسن عشرته لهنّ وهو في هذا الحال) .

اشتدادُ الوجع على رسول الله ﷺ

اشتدّ الوجع به ﷺ وارتفعت حرارته ، حتى إنّ حرارتها لتوجد من فوق ثيابه . ودخل عليه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه ، فوجد حرارته فوق لحافه ، قال : فقلت : يارسول الله ، ما أشدها عليك ، فقال ﷺ : " إنّا كذلك ، يُضعّفُ لنا البلاء ، ويُضعّف لنا الأجر " رواه ابن ماجه .

وقبل وفاته بخمسة أيام ارتفعت حرارتُه حتى أُغمي عليه ، فلمّا أفاق ، قال ﷺ: " اهريقوا عليّ سبع قرب لعلي أستريح ، فأعهد إلى النّاس "فجيء بالقرب ، فأجلسوه في مِخضب (أناء) وصبوا عليه عليه الماء ، فنشط وأحس بخفّة ، فخرج متوكئاً على الفضل بن عباس رضي الله عنه عاصباً رأسه حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر ، وخطب النّاس فقال :" إنّ عبداً خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ماشاء ، وبين ماعنده ، فاختار ما عند الله " فبكى ابو بكر رضي الله عنه ، وقال فديناك بآبائنا وأمّهاتنا ، فعجب الصحابة ، وقالوا : مايُبكي الشيخ ! ثم علموا أنّ المخيّر هو رسول الله ﷺ، فكان أبو بكر رضي الله عنه أعلمهم .

وصيةُ الرسول ﷺ لأصحابه رضوان الله عليهم ذلك اليوم

وأوصى رسولُ الله ﷺ أصحابَه في ذلك اليوم بثلاث :

١- إخراج المشركين من جزيرة العرب .

٢- إجازة الوفد بنحو ما كان يُجيزهم .

٣- قيل : الوصية بالقرآن ، وقيل : تجهيز جيش أسامة ، وقيل : قوله " لا تتخذوا قبري وثناً " وحاول رسولُ الله ﷺ أن يصلي بالنّاس فعجز ، وقال : " ضعوا لي ماءً في المِخضب " ففعلوا ، فاغتسل ، فذهب لينهض فأغمي عليه - بأبي هو وأمّي - ثم أفاق ، وقال " ضعوا لي ماءً في المِخضب " فاغتسل فذهب لينهضِ فأغمي عليه ثم أفاق ، وفعل ذلك مرة ثالثة ، ثمّ قال " مروا أبا بكر فليصلِّ بالنّاس "

فصلّى ابو بكر في النّاس تلك الأيام .

وقبل وفاته بثلاثة أيام أوصى صحابته بحسنّ الظنّ بالله تعالى ، فقال ﷺ : " لا يموتنّ أحدُكم إلا وهو يُحسن الظنّ بالله عز وجل "

آخر صلاة حضرها رسول الله ﷺ مع المسلمين ، ونظرته الأخيرة إليهم

قبل وفاته بيومين وجد ﷺ من نفسه خفة ، فخرج يهادى بين رجلين ، ورجلاه تخطان في الأرض من شدة الوجع وضعف القوة ، وأبو بكر رضي الله عنه يصلي بالناس صلاة الظهر ، فلما أحس به أبو بكر رضي الله عنه أراد أن يتراجع للخلف ، فأومأ إليه النبي ﷺ أن ابق مكانك ، فأجلساه عن يسار أبي بكر فكان رسول الله ﷺ يصلي بالناس جالسا ، وأبو بكر قائما يقتدي بصلاة رسول الله ﷺ ، ويقتدي الناس بصلاة أبي بكر .

وفي صلاة الصبح من يوم الاثنين الذي مات فيه كشف ستر حجرته كأن وجهه ورقة مصحف ، ورأى صفوف أصحابه في الصلاة فتبسم ، فكاد الصحابة يفتنون في صلاتهم فرحا برؤية النبي ﷺ ، فنكص أبو بكر على عقبيه ظانا خروج النبي للصلاة ، فأشار إليه النبي ﷺ ليتموا صلاتهم ، وأرخى الستر ، فكانت آخر النظرات منه للصحب الكرام ، وتوفي من يومه .

هول الفاجعة التي أصابت الصحابة رضي الله عنهم

شاع خبرُ وفاة رسول الله ﷺ في المدينة ونزل عليهم كالصاعقة ، واضطربت المدينة وأتى الأصحابُ رضي الله عنهم بيتَ رسول الله ﷺ ينظرون إليه ويقولون : كيف يموت وهو شهيد علينا .

وبلغ الخبرُ عمر رضي الله عنه ، فاستأذن ودخل عليه فقال : واغشياه ، ما أشدّ غشي رسول الله ﷺ ، فلمّا دنا من الباب قال له المغيرة : ياعمر ، مات رسولُ الله .

قال : كذبت ، إنّ رسول الله لا يموت حتى يُفني اللهُ عز وجل المنافقين .

ثمّ سلّ عمرُ سيفه وتوعّد النّاس ، وقام في المسجد خطيباً ، وقال : لا أسمع أحداً يقول : مات رسولُ الله إلا ضربتُه بالسيف ، وقال :

والله ما مات رسولُ الله ﷺ ولكنّه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى إلى ربه ثمّ رجع ، والله ليرجعنّ رسولُ الله كما رجع موسى ، فليقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنّه مات .

رجوع أبو بكر رضي الله عنه ، ودخوله على رسول الله ﷺ

أقبل أبو بكر رضي الله عنه على فرسه من مسكنه بالسُنح حتى نزل ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله ﷺ وهو مغطى بثوب ، فكشف عن وجهه ثمّ أكبّ عليه فقبله وبكى ، ثمّ قال : بأبي أنت وأمي يارسول الله ما أطيبك حيّاً وميّتاً ، والله لا يجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها . ثمّ خرج وعمر بن الخطاب يكلّم الناس فقال : اجلس يا عمر ، فأبى عمر أن يجلس ، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر ، فقال أبو بكر رضي الله عنه أما بعد :فمن كان منكم يعبد محمداً ، فإنّ محمدا قد مات ومن كان منكم يعبد الله فإنّ الله حي لا يموت ، قال الله تعالى : " وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ "قال ابن عباس : والله لكأنّ الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلهم فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها ، ثمّ إنّ عمر قال : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقِرتُ حتى ما تقلني رجلاي ، وحتى أهويتُ إلى الأرض حين سمعته تلاها علمتُ أن النبي ﷺ قد مات .

فكان أبو بكر أعلم الصحابة ، وأربطهم في قوة جأشه وثباته .

١٨٧

الاجتماع في سقيفة بني ساعدة وبيعة أبي بكر رضي الله عنه بالخلافة

لّما كان كبار الصحابة كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما منشغلين برسول الله ﷺ اجتمع الأنصارُ في سقيفة بني ساعدة لتكون الإمارة فيهم ، فأتوهم أبو بكر وعمر ومعهم بعض المهاجرين ، ولأنّ أمر الخلافة في قريش أراد أبو بكر توضيح ذلك للأنصار ، فلمّا أقبلوا أراد عمر رضي الله عنه أن يتكلم فأشار إليه أبو بكر ان اسكت ، فتكلّم أبو بكر مبيّناً فضل الأنصار ، ومكانتهم في الإسلام ونصرة الدين ، ثمّ ذكّر أبو بكر سعد ابن عبادة بقول النبي ﷺ: " قريشٌ ولاة هذا الأمر.." فقال سعدٌ صدقت ، نحن الوزاراء ، وأنتم الأمراء.

ثمّ قال أبو بكر رضي الله عنه : وقد رضيتُ لكم أحد هذين الرجلين ، فأخذ بيد عمر ويد أبي عبيدة .

قال عمر : فلم أكره ممّا قال أبو بكر غيرها ، والله أن أقدّم فتُضرب عنقي أحبّ إلي من أن أتأخر على قوم فيهم أبو بكر.

فقلتُ لأبي بكر : ابسط يدك يا أبا بكر فبسط يده ، فبايعته ، وبايعه المهاجرون ، ثمّ بايعته الأنصار.

وكانت هذه البيعة الأثنين ، فلمّا كان من الغد بايعه النّاس في المسجد ، فكانت البيعةُ العامّة لأبي بكر رضي الله عنه.

تجهيز الرسول ﷺ وتكفيه والصلاة عليه

احتار الصحابة رضوان الله عليهم في أمر تغسيل النبي ﷺ بعد موته ، فقالوا: والله، ما ندري أنجرد رسول الله ﷺ صلى من ثيابه كما نجرد موتانا، أم نغسله وعليه ثيابه ؟

فلما اختلفوا ألقى الله عز وجل عليهم النوم ، ثم كلمهم مُكلّم من ناحية البيت ، لا يدرون من هو ، أن اغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه .

وتولى غسله علي بن أبي طالب والعباس وأبناؤه الفضل وقُثم وأسامة بن زيد ومولاه شُقران رضي الله عنهم جميعاً .

ولّما فرغوا من تغسيله كُفّن في ثلاثة أثواب بيّض سحُولية من كُرسف (قطن) ليس فيها قميص ولا عِمامة .

ولّما كُفّن وضع على سريره في بيته ، ثمّ أُذن للنّاس بالدخول عليه أفراداً يتبع بعضهم بعضا يُصلّون عليه ولا يؤمهم أحد .

فلمّا أرادوا دفنه تشاوروا أين يدفنونه ؟

فقال أبو بكر رضي الله عنه : سمعت رسول الله يقول ﷺ :

" ما قبض الله نبياً إلا في الموضع الذي يُحبُ أن يُدفن فيه " فدُفن في حجرة عائشة رضي الله عنها .

وكان دفنه ليلة الأربعاء ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

أثر موت الرسول ﷺ على الصحابة وعلى الأمّة من بعدهم

حزنُ الصحابةُ على وفاة نبيهم ﷺ وحُق لهم هذا الحزن ، فموته أكبر مصيبة كبرى حلّت بهم ، يصوّر لنا أنسٌ رضي الله عنه هذا الحزن بقوله : مارأيتُ يوماً قطُّ أنور ولا أحسن من يوم دخل رسول الله وأبو بكر المدينة ، وشهدتُ وفاته فما رأيتُ يوماً قط أظلم من اليوم الذي تُوُفي فيه رسول الله ﷺ .

وفي رواية أحمد ، قال أنسٌ : لّما دخل رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كلُّ شيء ، فلمّا كان اليوم الذي مات فيه ، أظلم منها كلُ شيء .

فقد جعل الله بقاؤه أمان من العذاب وبموته انتهى هذا الأمان ولم يبق إلا الاستغفار ، قال تعالى :

" وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ "

الخاتمة

وبعد /

فقد منّ الله ويسر كتابة هذه الوقفات الموجزة في أهمّ أحداث سيرة خير الورى محمد ﷺ.

وهي أطهر سيرة ، وأصحّ سيرة ، عرفنا من خلالها مقدار الجهاد الذي قام به رسولُ الله ﷺ والصحب الكرام في الدعوة إلى الله ، ونشر هذا الدين ، ومقدار التضحيات التي بذلوها .

واطلعنا على دقائق تفاصيل حياته فهو كتاب مفتوح للعالمين لطهارة سيرته ، وكمال حياته .

تعرّفنا من خلالها على نشأته ، وطهارة حياته قبل بعثته ، والشدة التي لقيها بداية بعثته ، واستمرت معه حتى آخر يوم في حياته لنقف على فضله ومكانته على أمّته ، ووقفنا فيه على فصول من صبره على الأذى في سبيل الله ، وعفوه عمّن ظلمه وآذاه .

وعشنا لحظات عصيبة في حياته من فقد الأبناء والأصحاب والأحباب .

عشنا فرحه وتواضعه لنصر الله .

رأينا حياة الجهاد والتضحيات والبذل ، وكيف كانت حياته كلها في سبيل الله .

وتألمت النفوس مع أحداث موته الذي كتبه الله على كلّ مخلوق .ولا زالت سيرة نبينا هي النبراس الذي يستضيء بها المسلمون في حياتهم ، والنور الذي يستلهمون منه العبر .

فصلوات ربنا وسلامه عليه السرمدي الأمدي ما تتابع الليلُ والنّهار ، وماذكره الذاكرون ، وما غفل عن ذكره الغافلون ، وجمعنا به في جنّات النعيم .

وكان الانتهاء منها في صبيحة يوم السبت الثامن عشر من شهر شعبان لعام واحد وأربعين وأربعمئة وألف .

نستأنف بإذن الله المجموعة الثانية

بمدارسة :(سيرة النبي ﷺ وحياته)

ومدارسة السيرة أمر له أهمّيته البالغة للفرد المسلم ، قال علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب :" كنا نعلَّمُ مغازي النبي وسراياه كما نعلَّمُ السورة من القرآن "

وأردت أن أسير على ماسرت عليه في :

(سلسلة تأمّلات في أسماء الله الحسنى) بطريقة الفقرات ليسهل قراءتها وتداولها .

وهذا رابط المجموعة الأولى المضاف في موقع صيد الفوائد :

(سلسلة تأمّلات الأسماء الحسنى)

http://www.saaid.net/book/open.php?cat=115&book=16759

اسأل الله أن ينفع بهما جميعاً وأن يتقبلها عنده

أعدها / عادل بن عبدالعزيز المحلاوي

00966504392260

بريد إلكتروني addeel333@gmail.com